المـــوت لا زال هنـــا

عبد العزيز عباس

obeikan.com

عبد العزيز عباس: الموت لا زال هنا (مجموعة قصصية)

الحضارة للنشر

11 شارع نوال – الدقى 12311 – القاهرة

Al-Hadara Publishing

11 Nawal Street
Dokki 12311, Cairo, Egypt
Mobile: (20-122) 316 48 67

facebook.com/alhadara.books

الطبعة الأولى: مارس 2017

رقم الإيداع بدار الكتب 26566 /2016

I.S.B.N. 978-977-476-261-5

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

obeikan.com

الإهـــداء

إلى من علمتني

أبجدية الحياة

وتعلمت منها

أبجدية الكتابة..

إلى أمي...

عبد العزيز

obeikan.com

obeikan.com

المقـــدمة

إضـــــاءة

عندما احتضنت ملفاً كبيراً بين دفتيه ست عشرة قصة، مطبوعة بالآلة الكاتبة، تتفاوت أحجامها بين القصيرة والمتوسطة والطويلة نوعاً ما. وكل قصة تحمل تأريخاً في نهايتها يرمز للزمن الذي انتهى الكاتب من إنجازها.. نحيتها جانباً بحركة لا إرادية، متهيباً من الولوج إلى عالمها الرحب المعقد، فعمل فكري كهذا بذل صاحبه – لاشك – جهداً ووقتاً كبيرين لإنجازه، يحتاج لمن يقرؤه – وخاصة إذا خاض مثل ذلك العمل، وعرف بصدق جسامة المجهود، والعرق المسفوح، وإنهاك الفكر في سبيله – أن يتردد عدة مرات قبل الدخول إلى عالمه المجهول.

وأنا بالفعل قد مررت بمثل هذه التجربة مراتٍ كثيرةً قبل أن تقع هذه المجموعة القصصية بين يدي. واذكر حجم المعاناة، وتعب الكتابة في الليل تارةً وفي النهار تارةً أخرى.. وتصّيد شوارد الأفكار ومتابعة الشخوص ومعايشتهم، ورسم ملامحهم وأدوارهم في كل قصة، ناهيك عن رسم هيكلها قبل الشروع في نثرها على الورق تنبض بالحياة، ثم العودة إليها في وقت لاحق للتنقيح من تشذيب وتهذيب.

ولهذه الأسباب شعرت بالتهيب الكبير من هذا الملف الكبير في مضمونه. وتركته قرابة أسبوعين بجانبي قبل أن ألج إلي عوالمه الخبيئة.. لأن هذا الأمر يتطلب مني قراءة متأنية وفاحصة لجميع القصص في أوقات متاحة.. يتغشاها هدوء شامل، وذهن رائق وصاف، حتى تكون القراءة في مستوى المجهود الإبداعي الذي بذله صاحبه في هذه القصص. ومن هنا كان التهيب المشروع. فأنا قلما أجد هذه الشروط المطلوبة مجتمعةً في وقت واحد.. لكي أغوص في أعماق هذه الأعمال الفكرية بكلياتي. فالحياة أصبحت صعبة.. وهمومها الخاصة والعامة لا تتيح للكثيرين فرصة للرفاهية الفكرية– إذا جاز لي هذا التعبير.. فهم إذا خرجوا من همٍ واحد وجدوا أنفسهم – وجهاً لوجه – أمام هموم أعصى وأعتى – وهم يغذّون السير في الحياة – تتلقفهم وتغيِّب اهتمامهم الفكري في غياهبها المظلمة والمضطربة، وأنا بالطبع واحد منهم.

وهكذا دواليك ندور في دولاب من مشاكل الحياة لا يتوقف عن الدوران. ورن جرس الهاتف، وجاء صوت صديق عزيز من كتّاب القصة المبدعين يحثني بحرارة على الغوص بهمةٍ ونشاط في عوالم القصص التي يحتويها الملف الكبير.. ووعدته خيراً. وبعد الانتهاء من المكالمة الهاتفية.. فكرت في طريقة مثلى... وهي أن أتفرغ لهذه القصص بعد منتصف الليل، وقد هدأ كل ضجيج حولي وأفرغت من ذهني بعزم وشكيمة كل همٍ مستطير.

امتدت يداي إلى الملف بعد انتصاف ذات ليلة.. وقرأت (الموت ما زال هنا) وكان هذا هو عنوان المجموعة القصصية.. وتحت العنوان اسم الكاتب وهو القاص عبد العزيز عباس.. وللأمانة الأدبية لم أتشرف بقراءة أي عمل قصصي له قبلاً.

وكانت المفاجأة.. فعندما جرت عيناي على سطور القصة الأولى في المجموعة، حتى وجدت نفسي أترحل مع كل قصة بمتعةٍ وشغف كبيرين. لأن الكاتب يكتال في عمله القصصي من البيئة التي يعيشها ونعيشها معه، ونتنسم أنفاسها اليومية في حياتنا، ولأن القارئ لهذه المجموعة سوف يشعر بانجذاب حميمي إليها.. لأنه سوف يجد نفسه في كل قصة من قصص المجموعة، كل مرة بقالب مختلف تماماً.. كما يجد ذلك في حياتنا اليومية المتقلبة التي تضحكنا وتبكينا في آنٍ معاً.. وإن كان ضحكنا كالبكاء في غالب الأحيان. ولكن القاص عبد العزيز عباس نجح في تقديم همومنا وأمالنا إلينا بأشكالٍ جديدة ومحبوبة وأمينة.. واستطاع بمهارة أن يهز أعماقنا عند نهاية كل قصة، ولكي نبدأ من جديد في قراءة القصة التالية بلهفةٍ وشوق مستجدين.

وقد أرغمني القاص عبد العزيز عباس على الاستمرار في قراءة قصصه كل ليلة حتى انتهيت منها.. ولكنني وجدت نفسي أعود من جديد في قراءتها مرة أخرى.. وأنا استزيد منها كل جديد في كل توقف آني.

ونجاح كل أديب يعود في الأساس إلى تصوير بيئته المحلية لأن التصوير المتقن للبيئة المحلية في مختلف ضروب الأدب والفن تغري

مختلف شعوب العالم على الاطلاع عن كثب على عادات وتقاليد ذلك الوطن وهموم شعبه، وهذا ما فعله . بالضبط . القاص . عبد العزيز عباس مع رسم تطلعات شعبنا إلى الحياة الأفضل.

أبشر الجميع بميلاد قاص مكتمل الملامح نحت وما يزال له طريقاً خاصاً به بين الصخور الصلدة، ولكنه طريق مميز يدل على نجاحه بدون لوحة إعلان أو إشارة ضوء.. يساعده في ارتياد ذلك رغبة جامحة وإصرار لا يُقاوم، وموهبة تعلن عن نفسها بشموخ وثبات.

أُرحب بالقاص عبد العزيز عباس باعتزاز زميلاً كريماً في عالم القصة اليمنية القصيرة... يضيف ولا ينقص، يُعلى ولا يهدم، يكثر ولا يبدد.

أحمد محفوظ عمر

6 مايو 2001

openkan.com

النّـــدبة

حدقت النظر إليها ملياً، كان شعور مبهم يشدني إليها بقوة.. شيء ما في وجهها قد شد انتباهي من أول لحظة رأيتها في هذا المكان.. لم تكن جميلة جداً، رغم أن بها مسحة لا بأس بها من جمال، لكنه جمال لا يلفت الانتباه، ولكن ليس ذلك هو الأساس، وهذا ما جعلني أقع في حيرة من أمري، لست ادري على وجه الدقة ما الذي شدني إلى أن أحدق فيها وإلى وجهها على وجه الخصوص..

اقتربت منها بعد أن تركت مكاني، كانت تسرح في فراغ ما، لم تنتبه إليّ، وقفت بالقرب منها برهة من الوقت أتفرس في وجهها بحذر وخوف، وعندما شعرت أنها لم تعر اهتماماً، اقتربت أكثر.. كانت تجلس وحيدة في زاوية المشرب وكأس من الليمون موضوع أمامها كانت قد شربت نصفه ولم يكن بجانب منضدتها كرسي آخر.. نسيم الريح العليل حين يهب يعبث بخصلات شعرها الفحمي ليغطي جانباً من وجهها، اتكأت على السور الخشبي الذي يفصل النهر الصغير من المشرب وبقيت انظر إليها بإمعان، مرت برهة من الوقت، عادت كما يبدو من رحلتها التي ارتحلتها وهي جالسة في مكانها وأخذت الكأس بيديها الاثنتين لتشرب منه رشفة صغيرة ورفعت رأسها قليلاً، وفجأة وقعت عيناها عليّ ودون شعور منها توقفت حركتها لثوان ثم أبعدت

الكأس عن فمها لتضعه على المنضدة بحركة عصبية ظهرت واضحة، ارتسمت دهشة كبيرة على وجهها وربما كانت ممزوجة ببعض الضيق وقد اقتربا حاجباها من بعضهما ليظهر خطاً واضحاً طويلاً بينهما، وجاء صوتها رقيقاً ولكنه برنة قاسية.

– لا أظن بأنني رأيتك من قبل، فما سبب وقوفك هنا؟! ولماذا تحدق بي هكذا؟!

أكذب على نفسي إن قلت أنني كنت هيأت نفسي لأرد على أي سؤال توجهه إليّ، ترددت قليلاً وبعض خوف وارتباك سيطرا عليّ وأنا أدير رأسي في كل الاتجاهات خوفاً من أن يراني أحد ويظن بي الظنون وأنال ما لم أكن أتوقعه. ازدردت ريقي وأنا أحاول أن أبدو طبيعياً إلا أن صوتي جاء متردداً بعض الشيء مصطنعاً ابتسامة لا أدري كيف جاءت:

– المعذرة يا سيدتي.. أرجو ألا تظني بي سوءاً قبل أي شيء.. صحيح أنك لم ترني من قبل وربما كنت كذلك ولكنني – وأكرر المعذرة يا سيدتي إن بدوت صريحاً معك بعض الشيء – وجدت ثمة شيء ما شد انتباهي إليك.. لقد رأيتك من هناك (وأشرت إلى حيث كنت جالساً) كنت أشرب بعض القهوة وهذا ما جعلني أترك مكاني واقترب منك لا تحقق من ذلك الشيء الذي جر قدمي دون إرادة مني..

كان تعبير وجهها يتغير عند بعض كلماتي فيتباعد حاجباها عن بعضهما، ثم يعود إلى حالته الطبيعية، لكن الدهشة تبقى مرتسمة

عليه، صوتها مازال رقيقاً لم تفارقه رنته القاسية لكنه كان أقوى مما كان عليه.

– إسمع يا هذا.. أنني لست واحدة من اللاتي تبحث عنهن، وخير لك أن تذهب عني فوراً، قبل أن اقلب الدنيا على رأسك..

هالني كلامها وألجمني تماماً، لم أكن أتوقع أنها ذهبت بظنها بي إلى هذا الحد مما جعلني ازداد خوفاً وقلقاً، وبالقدر نفسه اندفعت من مكاني لا واجهها محاولاً أن أبعد عن تفكيرها تلك الصورة التي اعتقدتني بها.

– أرجوك يا سيدتي.. أنني إنسان احترم نفسي ولي كرامة اعتز بها ولم أكن اقصد شيئاً مطلقاً، أنك أسأت فهمي بطريقة مخيفة لم أكن أتوقعها قط.. إنني يا سيدتي لست من أولئك الذين يحاولون معاكسة الغير لأي سبب كان.. وعلى أية حال، لم آت إلى هنا من أجل البحث عن أية واحدة من اللاتي تقصدينهن، لأنني أكبر من ذلك الفعل المشين..

جاء صوتها مقتضباً، أمراً غير مبالية بما قلته:

– مهما كان سبب وجودك هنا فهو أمر لا يهمني.. طلبت منك أن تذهب عني وحسب..

أخذت كأسها لتشرب منه محاولة أن تتجاهلني أو هكذا بدا لي.. رشفت رشفة صغيرة منه ووضعته أمامها التفتت إليّ وقد ارتسم الغضب والتوتر واضحاً على ملامحها مدت يدها تزيح خصلة من شعرها غطت وجهها بعصبية واضحة، وقبل أن تصرخ بي غاضبة أو شامتة أو

ساخطة، عاجلتها محنياً رأسي قليلاً إلى الأرض كأنما أحاول امتصاص ذلك الموقف الذي بدأت أشعر بخطورته ولأرد عن نفسي ذلك الاتهام.

– سيدتي أرجوك.. ليس هناك ما يدعو إلى الصراخ، أنني لست معتاداً لمثل هذه المواقف.. سأذهب بالتأكيد.. ولكنني أكرر ما قلته لك، وأقسم على ذلك، أنني لم أقصد القيام بشيء ما قد يسبب لك الغضب أو حتى أن أثير لديك ظنوناً بي ليست صحيحة.. أرجو المعذرة يا سيدتي.. فان كنت سببت لك إزعاجاً أو كان وجودي قد آثار أعصابك فذلك لم يكن بقصد مبيت مني، ولم أكن أهدف من ورائه شيئاً مسيئاً.. وأنني على استعداد لان أقسم لك بأغلظ الإيمان أن أردت بأنني لم أقل سوى الحقيقة.. على الأقل أكون قد ارضيت ضميري، وأوضحت لك الأمر..

أدرت وجهي متجهاً بخطوات متعثرة وقد احتقن وجهي غضباً.. لقد أهنت تماماً.. ما كدت لأخطو الخطوة الرابعة أو الخامسة حتى أوقفني صوتها والذي جاء هذه المرة بنبرة متغيرة كثيراً.

– وما الذي جعلك تخترع هذه الحكاية إذاً؟؟!

لم أكن لحظتئذٍ قد بريت من توتري الذي أوغل نصله في صدري حتى انتبه لها.. توقفت ونظرت إليها ربما بحذر أو متشككاً.

– المعذرة.. يبدو أنني سمعت شيئاً ما لم أستبنه؟! هل كنتِ تتحدثين إليّ؟!

خيل لي أنني رأيتها تبسم فانتابتني دهشة باردة.

– كنت أقول ما الذي جعلك تخترع هذه الحكاية؟! إذا كانت نيتك صادقة كما تزعم؟؟

– أية حكاية يا سيدتي؟!

ابتسمت.. ابتسمت فعلاً.. أحسست حينها أن كرة جليدية قد ذابت لتثلج صدري وتمحو في لحظة كل ما عانيته.. كانت تمسك كأسها بكلتا يديها وكانت تنظر إليّ:

– أفرض أنني أمنت بصحة ما قلته، وغيرت اعتقادي بك تماماً.. لكن يبدو لي أنك لست غبياً إلى هذا الحد؟!

حاولت مجاراتها، افتعلت ابتسامة وأنا أدرك تماماً أن ظلال الخوف لا تزال تحلق فوق هامة نفسي.

– ربما أخطأت التصرف.. ذلك شيء اعترف به ولا أنكره.. كان الأجدر بي أن أكون أكثر اتزاناً حتى أحفظ ماء وجهي.. وتلك حكاية لم اخترعها إذا أردتي أن تصدقي، إنما أردت من خلالها أن أتحقق من صحة ما توهمته دون أن أفكر أن ثمة عواقب قد تأتي بما لم أكن أتوقعها.. ذلك هو كل شيء..

ارتسمت دهشة كبيرة على وجهها وهي تتطلع إلى متسائلة:

– ماذا تقصد؟!

كانت كلماتي تتضح ألماً لكن صوتي كان متماسكاً وإن كنت قد أطلقت زفرة عميقة تحمل كل معاني العذاب.

– لا أدري على وجه التحديد، لكنها قصة طويلة قصة يختلط فيها المعقول بالمستحيل والحقيقة بالخيال.. لكنني عندما رأيتك ترحلين

بخيالك إلى البعيد، شدني شيء ما إليك، لست ادري على وجه اليقين ما هو، وهذا ما شجعني لان اقترب منك لا تحقق منه فربما وجدت عن قرب حلاً لذلك اللغز الذي جعلني في لحظة من التأمل أنسى أنني أحدق فيك على ذلك النحو..

– وهل وجدت حلاً للغزك هذا؟!

أحببتها مشفقاً على نفسي..

– لا ادري ماذا أقول لك حقاً يا سيدتي؟! ولكن يبدو أنني.. (سكت علني أجد كلمة مناسبة وعندما فشلت أطلقت ابتسامة اعتذار) لست أدري ماذا أقول؟!

تفرست بوجهي طويلاً، وجدته نحيلاً بارز عظام الوجنتين بشكل ملحوظ وعلى عيني عوينات طبية وشعر رأسي الذي غزى معظمه اللون الأبيض. أطلقت نهدة طويلة ثم رمشت بعينيها نحو كأس الليمون كأنها تخفي شيئاً، تخاطبني من خلاله بصوت خافت:

– يخيّل لي أن الحديث سيطول بيننا أكثر.. (تطلعت إليّ مرة أخرى بنظرة بها مسحة شك وحيرة).

– لقد بدأت أشعر أن ثمة شيء ما لا أستطيع أن أتحقق منه، يعتمل في نفسي.. هل تجلس هناك وحيداً؟ أقصد هل لديك شريك تجلس إليه؟!

أجبتها وأنا الآخر أتردد بين الحيرة والشك:

– كلا يا سيدتي.. أجلس وحيداً كما ترين (تمتمت أخاطب نفسي عندما رأيتها تتفرس بي مجدداً) يا الهي.. هل لازالت تشك بي؟!

تساءلت قائلة:

– ماذا قلت؟!

أجبتها بسرعة ربما لأداري ارتباكي..

– قلت إنني أجلس وحيداً.. ولكن هل لي أن اعرف السبب، إذا لم يكن لديك مانع؟!

أنكست رأسها كأنما تحاول أن تخفي شيئاً ما بقيت برهة من الوقت يلفها الصمت.. ثم رفعت رأسها إليّ بوجه واجم ونظرات شاردة قالت بصوت أمر:

– لا تقف هكذا.. اذهب وأحضر كرسيك وأقعد أمامي.. (نظرت إليها أحاول أن استفهم أكثر) ربما وجدنا شيئاً مشتركاً يحل لغزك الذي عجزت عن حله.. (صمتت قليلاً ثم ابتسمت قائلة) ماذا بك؟! أنني أدعوك.. فهل تقبل؟!

تخيل حينها أن شخصاً ما صفعك على وجهك صفعة قوية ألمتك حتى العظم، ثم أمسك برأسك ليضع عليه قبلة حنان كبيرة.. كنت حينها أشبه بذلك الموقف.

– وما المانع؟! أقبل بالتأكيد.. أنه شرف كبير أعتز به ولكن.. أرجو ألا أكون مصدراً لمشاكل ربما قد تواجهينها بسببي..

أشاحت بوجهها جانباً وبنبرة تحمل كل دلائل الأسى والألم.

– ليس ذلك من شأنك.. إذا كان هناك من انتظر، فهو لن يأتي قط.. لقد انتظرته سنوات طويلة، ورغم ذلك فلازال يراودني بقية من

أمل.. خذ مقعدك وتعال لنتحدث.. إنني أشعر بحاجتي للحديث مع إنسان يسمعني.. هيا تحرك..

ذهبت لتوي وأحضرت الكرسي وكوب القهوة وجلست قبالتها وهي تتطلع إليّ وتتمتم بكلمات لم تصل إلى سمعي وقد مسحت وجهي بنظراتها الشاردة.. قلت لها مبتسماً:

– هل أطلب لك شيئاً؟!

– إنني لم أنه كأس الليمون بعد.. وعندما أريد شيئاً سأطلبه بنفسي.. (شعرت بأنها قد أساءت إلى مشاعري دون قصد منها.. وبحركة ذكية نظرت إلى كوب القهوة مبتسمة كأنما تعتذر) الأجدر أن تطلب لنفسك كوباً آخر بدلاً من هذا.. لقد أصبح بارداً بما فيه الكفاية وهو في انتظارك..

لقد كانت بالفعل نكتة ظريفة جعلتنا نضحك معاً.. كانت ضحكة صافية، صادرة بكل صدق من أعماق قلبينا.. صمتنا ليتفرس كل منا إلى الآخر.. كانت تبدو في الخامسة والأربعين من عمرها.. شاحبة الوجه، كما لو أن الزمان قد فعل فعلته وعبث به كثيراً.. كان شعرها الفاحم الطويل تتخلله خصلات بيضاء مزروعة في الداخل يمكن رؤيتها إذا هبت نسمات ريح تطوح بخصلاتها في كل اتجاه.. وشيء من المرارة مغروسة في وجهها.. جاء صوتها بعد لحظة الصمت جاداً دون مقدمات والحزن المرير يلف كلماتها التي خرجت تجاهد بكل معاناة ومشقة لتبدو طبيعية..

– عندما كنت في العشرين من عمري أحببت شاباً يكبرني بعامين.. كان كل منا يحب الأخر حباً لا يوصف واستمرت علاقتنا تنمو وتتوطد سنة بعد أخرى لفترة طويلة..

(عبست قليلاً ثم استطردت بنبرة صوتها السابقة) لكن حدث شيء لم يكن في الحسبان.. اختفى فجأة من حياتي بعد مرور ست سنوات على علاقتنا هذه.. كأنما انشقت الأرض وابتلعته.. بحثت عنه طويلاً في كل مكان.. سألت عنه من يعرفه ومن لا يعرفه، دون أن أقف على أثر.. أصبت بعد ذلك بانهيار عصبي وصاحبتني حالة نفسية كئيبة.. تغيرت أمامي كل أشكال الحياة الجميلة التي كنا نرسم أدق تفاصيلها بخيالاتنا.. حتى لون شعري فقدته وشكل وجهي وقوامي.. (زفرت بأسى وألم) أنها قصة طويلة لازالت تشغل مساحة فكري حتى هذه اللحظة.. أصبحت كلما أخلو إلى نفسي أسرح طويلاً دون شعور.

.. قلت لها وأنا أحاول أن اخفف عنها متأثراً من حدة ألمها..

– إنها فعلاً قصة مؤلمة.. ولكن.. هل تزوجتما؟! أعني قبل افتراقكما..

أطلقت زفرة حادة تقاطعني بنفس نبرتها تلك ودمعة هبطت بسرعة على خدها الضامر واستقرت أسفل ذقنها.

– كلا.. بل كان مشروع حلم لم يكتمل.. وفي كل مرة كان يقف طارئاً أمام تحقيقه حتى اختفى.. (صمتت قليلاً وهي تتطلع اليّ كأنها تحدث نفسها) كان شاباً رائعاً.. ابتسامته العذبة، شاربه الدقيق.. وتصفيف شعره الذي أحبه كثيراً وله عينان تبدوان دامعتين دائماً.. ربما

تشبه عينيك إلى حد ما.. كل ذلك تركه لي ذكرى أتعذب بها.. (سكتت ربما اختنق صوتها بنوبة بكاء، كانت الدموع تنهمر من عينيها تركتها لصمتها وهي تغالب البكاء، وتمسح دموعها.. كنت أشعر أن قصتها تقترب من قصتي تماماً.. كانت رشيقة القوام عندما تعرفت بها قبل زمن طويل.. كان لها شعر أشقر طويل أتباهى بالعبث به كما طفل يتباهى بلعبته التي يحبها.. كان وجهها ليس جميلاً ولكنه لم يخلو من مسحة منه، كان دائرياً ممتلئاً، عيناها ناعستان وشفتان صغيران ممتلئان وذقناً ينتهي بطرف مدبب.. كانت تحمل تحت أذنها اليمنى "ندبة" غائرة أصيبت بها منذ كانت طفلة أثر جرح كاد أن يؤدي بها بعد سقوطها من سلم منزلها إلى الأسفل لينغرس طرف حديد صدئ تحت أذنها مباشرة واندمل الجرح وبقيت منه هذه الندبة قلت لها مشاطراً ألمها:

– الغريب في أمر قصتك أنها لا تختلف عن قصتي كثيراً.. ربما تشابهت في بعض وجوهها.. والمؤلم أنني لم اعد أذكر كل تفاصيلها. وكل ما أذكره أن السنوات التي مرت كنت اسميها لحظات جميلة، لأنها لم تكتمل كما أردنا لها أن تكون.. (بدأت هنا تتطلع اليّ وتسمع بعد أن كانت منهمكة بمداراة بكائها.. باهتمام بالغ) كان ذلك اليوم شؤماً.. سافرت في مهمة مستعجلة في صبيحة ذلك اليوم كي أعود عند منتصف الليل.. كان مدير المصلحة قد اخبرني أنه اختارني إلى جانبه في هذه المهمة ولم يترك لي فرصة إخبار أسرتي لأن نصف ساعة وهي الفترة التي يجب أن نكون على ظهر القطار لن تكفي وربما اختار

ذلك الوقت متعمداً حتى لا يعرف أحد عن هذه المهمة وهي سرية للغاية.. كنا ذاهبين لاستلام مخصصات المصلحة لعام كامل والإدارات التابعة لها.. بعد أن عرف أن المسئول عن تسليم المخصصات المالية قد توفي قبل أسبوع ولم يعين بديلاً عنه. ولذا كان عليه أن يذهب لاستلامها بنفسه وهي مبالغ كبيرة تقدر بعشرات الملايين من الدنانير وعليّ أن اصطحبه باعتباري أميناً لخزانة المصلحة. ووعد بأن يمنحني أجازة لمدة يومين وعلاوة أضافية.. وأضاف قائلاً: ليبعد عني الخوف من هذه المهمة بأن قوة من الشرطة سترافقنا عند عودتنا تحسباً لأي طارئ واتجهنا إلى محطة القطار بسيارة المدير وسرعان ما انطلق بنا القطار ينهب الأرض بسرعته الفائقة ولكن شاءت الأقدار إلا نصل إلى المكان المقصود، فانقلب بنا القطار بسبب خلل في سكته. وكانت أقرب منطقة منا تبعد بأكثر من خمسمائة كيلو متر.. كل ما اذكره في تلك اللحظات، أنني وجدت نفسي منبطحاً قد أصبت ببعض الجروح وكنت بالقرب من شجرة لمحت حينها مدير المصلحة ممدداً لا يكاد صوته يسمع وقد سحقت نصف جسده إحدى عربات القطار عند سقوطه وكثيراً من جثث الركاب مرمية هنا وهناك، أسرعت أحاول مساعدته ولكن شيئاً ما سقط على رأسي وحينها لم أعد أذكر شيئاً.. بقيت سنوات طويلة فاقد الذاكرة في احدى المصحات ولما فشل الأطباء من علاجي نفضوا أيديهم عني وأبقوني هناك حتى يقرر الله في أمري.. ولكن شاء القدر أن أستعيد وعي عندما وقعت ذات يوم من اعلى سلم المصحة وعندها عادت ذاكرتي.. حينها تذكرت القطار والمدير والحادثة والمهمة التي ذهبنا من أجلها وحبيبتي التي تركتها

وأسرتي.. ولكن عندما اخبروني أنني بقيت رهن العلاج لفترة تزيد عن العشرين عاماً تلاشت أمامي كل الصور الجميلة.. رغم ذلك عدت إلى هنا والفرح الذي غمر قلبي يسبق خطواتي، وما إن وصلت، حتى صدمني كل شيء.. لقد مرت أعوام كثيرة تبدل فيها كل شيء.. فالمكان لم يعد هو المكان الذي أعرفه والناس غير أولئك الناس الذين عشت معهم. عرفت أن والدي قد توفي وأخوتي لم أعثر لهم على أثر وأخذت أبحث عن حبيبتي فربما وقفت على خبرها.. لأعرف أنها لا زالت تعيش أم.. أو أنها قد تزوجت ورزقت بأطفال.. ولكن وان وجدتها أمامي لن أعرفها قطعاً.. إنما كان هناك أمل لازال يعيش معي وإحساس غامر أن التقيها وكل ما اذكره فيها شيء واحد.. تحت أذنها اليمنى توجد ندبة أثر جرح غائر..

صرخت تقاطعني بكل قوة غير مصدقة وهي تجهش بالبكاء، هزت كل كياني..

– أحمد.. أنا ليلى.. انظر هاهي الندبة... (كانت رفعت شعرها لتريني تحت أذنها اليمنى).

مرت لحظات لا ندري طولها.. وكل منا قد رمى بنفسه إلى حضن الآخر وتركنا لأنفسنا المعذبة لان تبكي بحرقة الألم وفرحة اللقاء والدموع تغسل عنا كل سنوات العذاب...

1994/2/8

الموت ما زال هنا

عندما بدأت تندلع النيران، كانت حينها السماء شديدة الظلام، أخذت السنة اللهب تتصاعد شيئاً فشيئاً إلى عنان السماء، كان بعضها يرتفع ثم ينخفض كأنها ترقص على أنغام موسيقى الرياح التي هبت ليلتها والأخرى كانت تغوص في أعماق الدخان الكثيف تتلوى كأفعى، كانت النيران تتسع رقعتها بسرعة كبيرة، تلتهم الأكواخ والأكشاك الخشبية المتقاربة من بعضها البعض فتزداد ألسنتها تتصاعد أكثر كلما أتسع نطاق امتدادها، كان الناس حينها يغطون في نوم عميق، لم توقظهم "قزقزتها" وهي تأتي على العوارض والألواح الخشبية بين آونة وأخرى، ولم يشعروا بحرارتها أو بدخانها الكثيف المتصاعد منها، وكانت تسمع بين لحظة وأخرى صرخات استغاثة مكتومة لرجال أو نساء أو أطفال لكنها سرعان ما تسكت تحت زحف النيران المتسارعة والتي لم ترحم أحداً ولم تفرق بين كبير أو صغير، رجل أو امرأة.. وفي أطراف القرية يقع أحد الأكواخ تقترب منه النيران، نهض طفل صغير من نومه وأخذ يصرخ باكياً، تجاهلته أمه التي كانت تنام بجانبه في بادئ الأمر وعندما أشتد صراخه، مدت الأم يدها تتحسس أسفل طفلها وعيناها مغمضتان، عرفت انه قد تبول على نفسه.. نهضت بتثاقل، تتحسس طريقها المظلم إلى الغرفة المجاورة لتأتي ببعض الملابس

الجافة.. لمحت من خلال شقوق النافذة الخشبية ضوءاً أحمراً على مسافة غير بعيدة من بيتها فوقفت تتساءل وطفلها لازال يبكي بعناد..

– هل من المعقول أن الفجر قد أقبل؟! ولكن لماذا يبدو ضوءه أحمراً هكذا؟!.. كلا.. إن ذلك ليس ضوء فجر أبداً.. إذاً ما هو الأمر يا ترى؟؟..

دفع بها فضولها لتفتح النافذة تجمدت ثوان من الرعب الذي عقد لسانها وجعل حدقتي عينيها تتسعان وهي تحملق بذهول إلى تلك النيران التي تقترب من منزلهم بسرعة بسبب الرياح وتقارب الأكواخ، ثم أطلقت صرخة مدوية قفز زوجها من نومه مرعوباً شامتاً:

– عليك اللعنة.. ماذا جرى أيتها الحمقاء؟! هل جننتي عندما تصرخين في مثل هذا الوقت؟! ألا تدركين أنك تزعجين القرية بأكملها؟! أين أنت؟!

أجابته بصوتها المرتجف وهي لازالت تحملق أمامها:

– إنهض.. إنهض يا رجل.. تعال وانظر ما أرى.. أنه حريق هائل يقترب منا..

هب الرجل وأسرع الخطى إلى حيث تقف زوجته تأمل أمامه ثم قال بخوف وحسم..

– يا إلهي أنه حريق هائل حقاً.. هيا علينا أن نخرج من هنا بسرعة، خذي الطفل وانتظري عند الطريق وسوف أوقظ الجيران لنرى ما يمكننا عمله.. هيا أسرعي..

خرج يطرق أبواب الأكواخ القريبة منه وهو يصرخ بصوت عال:

إنهضوا..

إنهضوا..

أيها الناس.. النار تقترب منا.. انهضوا بسرعة..

وفجأة ساد الهرج والمرج جو القرية، فقد خرج الناس يشاهدون النيران تقترب من أكواخهم وأسرعوا دون أبطاء لمحاولة إخمادها قبل أن تصل إلى بقية أكواخ القرية.. مرت ساعة، تلتها أخرى ثم ثالثة ولازال الجميع يبذلون جهودهم ولكن النار – وإن استطاعوا في بعض الأحيان إيقافها ومحاصرتها عندما تهدأ الرياح قليلاً – أخذت تمتد أكثر فأكثر بسرعة كبيرة وكل منهم بيده دلو صغير أو جرة أو آنية يملئونها بالماء من البئر الوحيدة التي تبعد عن القرية بعشرات الأمتار يقذفون ما بها من ماء في وجه النار ويعودون ثانية ليملؤها، نشاطهم وحركاتهم وأصواتهم المرتفعة تزداد ارتفاعاً وحدة كلما ازدادت النار اتساعاً.. البعض يسب ويلعن هذه النار والبعض الآخر يبتهل إلى الله أن يساعدهم على إخمادها والبعض الثالث يصرخ محاولاً زرع الحماس بين الأفراد الذين قد بدأ الوهن والضعف يتسللان إليهم، وفيما هم على هذا النحو، كان الفجر قد بدأ يرسل خيوطه البيضاء من الأفق البعيد، وقف شيخ طاعن وهو يلهث بشدة والعرق يتصبب من جسده الواهن يلتقط أنفاسه وبيده دلواً صغيراً، وإلى جانبه رجل تتقطع أنفاسه وقف متسائلاً:

– ما الذي أوقفك أيها الشيخ؟! كلنا تعبون ومجهدون ولكن ليس أمامنا سوى..

قاطعه الشيخ صائحاً متذمراً:

– ليس بهذا القدر يا بني.. أعرف جيداً أن لا فائدة ترجى. لا فائدة من كل ذلك الجهد الذي بذلناه وما سوف نبذله فلن نستطيع إخمادها..

قال الرجل وهو يمسح عن وجهه العرق المتصبب:

– ورغم ذلك ماذا سنخسر لو بذلنا بعض الجهد.. لقد توقفت الرياح تماماً وهذا ما سوف يساعدنا على إخمادها.

صاح الشيخ بنفس تذمره مشيراً إلى النار..

– ليست الرياح هي القضية وإلا كنا قد حاصرناها منذ فترة. بل المأساة تكمن في تقارب المنازل من بعضها.. ألا ترى ذلك؟!

نظر الرجل إلى حيث أشار الشيخ فهز رأسه مقتنعاً:

– إنك محق أيها الشيخ.. رغم أننا بذلنا جهداً سخياً لننقذ ما يمكن إنقاذه إلا أنني كنت أشعر في قرارة نفسي استحالة ذلك.. فأن لم نفعل شيئاً على وجه السرعة فربما حصدتنا النيران أيضاً..

صاح الشيخ يحثه بحدته تلك:

– إذا.. ما فائدة وقوفنا هنا.. اذهب وأخبر الجميع بالكف عن هذا العبث الذي لا طائل من ورائه حتى يسارع كل منهم بحمل ما يقدر عليه من متاع ونذهب جميعاً من هنا قبل فوات الأوان..

نظر الرجل إلى الشيخ ثم إلى النار التي لازالت تواصل امتدادها بعناد وإصرار، أطلق زفرة غاضبة وقال بصوت كئيب:

– ما الذي جنته هذه القرية يا إلهي من آثام حتى تعاقب هكذا؟! فمنذ عام ونحن نواجه الموت ألواناً يتسارع بين فترة وأخرى.. كان أوله

ذلك السيل العارم الذي جرف في طريقه ثلث منازل القرية وأهلك كل من كان فيها.. ثم تبعه بأسابيع ذلك المرض الذي انتشر بين الناس فجأة ودون سابق إنذار وحصد من البشر ما حصد ولم تمض على ذلك الوباء أكثر من أسبوعين أو ثلاثة إلا وفاجأتنا العواصف المدمرة وسحقت الكثير منا ثم تلتها تلك الأمطار الغزيرة والرياح الشديدة التي انهارت بسببها مجموعة أخرى من المنازل على رؤوس ساكنيها فمات من مات وجرح من جرح.. وبعد أشهر جاءت هذه النيران لتأتي على ما بقي فيها من بيوت وبشر.. ولكن.. كيف جاءت؟! وما سببها؟! هل تراها بسبب شمعة سقطت أو فانوس انقلب أو..

قاطعه الشيخ بضيق واضح:

– فليكن ما كان السبب.. ليس لدينا وقتاً نضيعه أكثر مما أضعنا وإلا وجدنا أنفسنا وقد حاصرتنا النيران من كل جانب..

كان البعض من الناس قد تجمعوا حولهما يستمعون إلى ذلك الحوار مما حدى بالشيخ أن يصرخ بهم حانقاً:

– ما الذي تنتظرونه؟! لماذا تقفون هكذا؟! هيا.. فليسرع كل منكم إلى منزله ويأخذ ما يمكن له أخذه قبل أن يندم الجميع..

قال أحد الرجال وهو يحمل دلواً مملوءا بالماء:

– وإلى أين يمكننا أن نذهب أيها الشيخ؟! ليس أمامنا من خيار غير إخماد النيران.. أنه الحل الوحيد.. ولازال لدينا أمل لفعل ذلك لا أن نستسلم..

صاح الشيخ غاضباً:

– أننا لم نستطع إخمادها منذ أربع ساعات أو يزيد بل أننا فشلنا حتى من إيقافها.. لقد حاولنا بكل ما نملك من قوة دون جدوى بل أخذت تمتد أكثر فأكثر..

قال رجل أخر كان قد عاد بدلوه الفارغ بعد أن قذف ما به من ماء في وجه النار.

– ليس هناك من يصدر الأمر ببقائنا أو الرحيل.. فإذا كنا قد اتجهنا دون موعد أو اتفاق نحو هدف واحد هو إخماد النيران فلنفعل ذلك حتى النهاية.. وإذا كان لابد لنا من الرحيل بعد كل ذلك الجهد الذي بذلناه فعلينا أن نتدارس الأمر ونتفق في الرأي..

قاطعه الشيخ غاضباً:

– حسناً.. إنني لا أتحدث إلا عن نفسي يا هذا ولكنني أحذركم فقط.. ليس لدينا من الوقت كي نتبادل الرأي والمناقشة العقيمة ونترك النار تزحف بكل حرية، ولم نصل بعد إلى رأي.. أن الأمر متروك للجميع، فمن يريد الرحيل فليسرع ومن يريد البقاء فليبقى.. صدقوني.. أننا لم نعد نملك حلاً غير هذا.. يجب أن تفهموا جيداً أن بقائنا هنا يعني فنائنا.. فكل دقيقة تمر لها أهمية لا يمكن تقديرها..

صمت الجميع مطرقاً يفكر وكل منهم يمسك بيده دلوا أو أنية.. وكانت النار تبتلع الأكواخ بسرعة صاح الشيخ محذراً:

– إن النيران لن تنتظر حتى تتخذوا القرار.. لقد قلت لكم ما أردته.. فليبق من يريد، ومن يريد الرحيل فليأت.. أنني راحل..

قصد الشيخ منزله ليجمع ما يستطيعه بينما بقي الجميع بين متردد ورافض يتهامسون ويهمهمون ولم تمر ثوان إلا وانفض الجميع كل منهم يسرع باتجاه منزله..

كانت الشمس قد أخذت ترسل أشعتها إلى الأرض، حيث وقف الجميع على مبعدة من القرية ينظرون إليها وهي تتلاشى شيئاً فشيئاً حتى اختفت تماماً ولم يبق سوى كتلة من دخان أسود كثيف يتصاعد إلى السماء.

صرخت امرأة باكية تمسك طفلة صغيرة بيدها وبيدها الأخرى صرة كبيرة وعلى رأسها صرة أخرى:

– يا إلهي.. كأنني في حلم يجثم على صدري كابوسه، هل أصدق ذلك؟! هل انتهى كل شيء كأنما لم يكن.. سنوات عمرنا الجميلة التي أتت على ذكرياتها النيران وذهب معها كل ما كنا نملكه في هذه الحياة.. هل أصدق أن هذه الأكوام من الرماد كانت في يوم ما قريتنا؟!..

وقالت امرأة أخرى تحمل طفلها على كتفها وعلى الأرض أمامها صرة كبيرة وكأنما تجيب على المرأة الأولى:

– لقد أراد الله لنا أن نعيش.. رغم كل الكوارث التي حلت بالقرية كان الله يكتب لنا عمراً جديداً.. له الحمد على كل شيء..

عجوز لم تستطع الوقوف فاقتعدت الأرض وبجانبها صرة صغيرة تنتحب بشدة والدمع ينهمر من عينيها:

– لقد فقدت ولدي في كارثة السيل.. وتبعته ابنتي في كارثة العواصف وابنتي الأخرى في كارثة الأمطار وها أنا وحيدة الآن بعد أن فقدت أخر من بقي لي فقدت زوجي في هذه الكارثة.. أنقذني وذهب هو كم أتمنى لو كان قد أبقاني معه حتى لا أعيش هذا العذاب الذي يطاردني كظلي..

ساد الصمت الجميع فترة قصيرة.. كان اليأس مسيطراً على وجوههم.. صرخت امرأة بانفعال واضح:

– ماذا بكم أيها الرجال، تقفون هكذا كالبلهاء؟! لقد فقدنا كل شيء.. هل سنبقى هكذا؟! يجب أن تفعلوا شيئا..

أجابها رجل كان يقف بالقرب منها ونبرة يأس وقنوط وشيء من الحدة:

– وهل ترين شيئاً بأيدينا يمكن أن نعمله؟! أو أننا نملك عصاً سحرية نضرب بها الأرض لتنبت لنا قرية أخرى؟! ألا ترين أننا لازلنا نعيش الصدمة والذهول؟!

صرخت امرأة أخرى غاضبة في وجه الرجل:

– وماذا ستفيدنا صدمتك أيها الرجل؟! لو كان بكاؤنا ونحيبنا سيعيد هذه الأطلال إلى ما كانت عليه، لأغرقنا الأرض بالدموع؟!

تطوع رجل أخر قائلاً:

– وماذا تريدين منا أن نفعل؟!

صرخت المرأة بغضب واضح:

– وهل تنتظرون منا أن نشير عليكم بما يجب عمله؟! ألستم رجالنا الذين يجب أن نعتمد عليهم؟! تدبروا الأمر فيما بينكم بدل ذلك الوقوف المخزي، سينتصف النهار بعد قليل وستحرق الشمس رؤوسنا ورؤوس أطفالنا، وربما داهمنا الليل وننام في العراء.. إذا كان الله قد كتب لنا الخلاص من هذه الكارثة.. فماذا ستخبئ لنا الساعات القادمة؟!

قال الشيخ بصوت هادئ لعله يمتص ذلك الموقف الذي قد يتحول إلى مأساة وكانت نبرته تنم عن ألم عميق وحزن دفين..

– إذا كان الله قد أنقذنا، فهو الذي سيشملنا برعايته.. عليكم أن تضعوا إيمانكم بالله وتسلموا أمركم له.. وليكن بعدها ما يكون..

قال رجل بحزن عميق:

– أنني أخال أن شبح الموت لازال يحوم فوق رؤوسنا.

أجاب أخر يدعمه مضيفاً:

– صدقت أيها الرجل.. أنه عام شؤم وبؤس وشقاء موت يخيم علينا في كل وقت.. فان كنا قد ابتعدنا عنه بأعجوبة فلا يعني أننا بعيدون عن شبحه..

صرخ رجل وقد استفزه ذلك الحوار:

– أليس لديكما حديثاً أخراً غير الموت وشبحه؟! ازرعوا ثمة أمل في نفوس الناس.. دعونا نفكر في الأمر بجدية بدلاً من اللغو غير المجدي فربما وصلنا إلى حل ما يحمل معه خلاصنا من موقفنا هذا وبقائنا في هذا المكان المخيف.

نظر إليه رجل وقد التف بعض الرجال حوله.

– مثل ماذا؟!

قال الرجل متذمراً:

– ومـا أدرانـي أنـا؟! أننـي لا أسـتطيع أن أقرأ مـا يـدور فـي رؤوس الجميع.

قال رجل كان يجلس على مبعدة منهم بصوت هده التعب..

– لقد تعبنا كثيراً ونحن نحاول أن نخمد النيران.. وليس باستطاعة أحد أن يفكر..

قاطعه أحد الرجال الواقفين وقد أشرقت على وجهه ابتسامة ما:

– أسمعوا لماذا لا نرحل من هنا ونواصل المسير فلدينا متسع من الوقت قبل أن تغيب الشمس، فربما وصلنا إلى قرية ما قريبة من هنا أو نجد مكاناً يلائم مبيتنا غير هذا المكان..

وهنا أنقسم الرجال بين مؤيد ومعارض، فالمعارضون أفصحوا بلسان أحدهم:

– أننا تعبون ولا نستطيع أن نتحرك خطوة واحدة وليس هذا فقط.. ولكن عليكم أن تعلموا أن معنا نساء وأطفال كيف يمكنهم أن يقطعوا مسافة لا يعلم بها إلا الله..

لكـن المؤيـدون رفضـوا ذلـك ودخلـوا فـي مشـادة كلاميـة حاميـة الوطيس.. حسمها الشيخ قائلاً بصوت عال:

– لـن نبـرح هـذا المكـان مهمـا كلـف الأمـر وعلـيكم أن تعلمـوا أنـتم الذين تتذرعون بالهرب من الموت.. أنه إذا كان مكتوباً على أي منا أن

يلقي حتفه فأنه لن يستطيع أن يهرب منه حتى ولو ذهب إلى أقاصي الأرض.. فما مكتوب لنا سنلاقيه..

ساد الصمت الجميع.. كانت الشمس قد خفت حرارتها وهي تزحف ببطء نحو المغيب، كانت النسوة قد افترشن الأرض مع أطفالهن وذهبن في سبات بينما افترش بعض الرجال الأرض وغطى جسده بملاية ونام بينما جلس الآخرون على الأرض يدخنون ويتبادلون بالأحاديث.. كانت الشمس قد وارت الأفق.. أخذ الشيخ الفانوس وأشعله ثم وضعه على تلة مرتفعة وكان الجميع قد غطوا في نوم عميق.. بقي الشيخ مستيقظاً يطوف بين النائمين يقوم بتغطية من لم يتدثر كما يفعل الأب لأبنائه.. وعندما أطمأن أنهم نائمون ومتدثرون.. كان التعب قد فت في عضده أبتسم لنفسه قائلاً:

– لن أستطيع البقاء أكثر من ذلك.. لقد كان يوماً شاقاً وصعباً على الجميع لم يحتمله بعض الشباب فما بالك بشيخ يناهز الستين بقليل.. سآخذ قسطاً من الراحة ربما يساعدني على السهر عليهم وحمايتهم ولا أستطيع أن ألوم أحداً على كل حال أو أطلب منه أن يأخذ حصته في التناوب..

تثاءب بقوة وهو يفترش الأرض وغطى جسده الواهن بدثار تطلع إلى السماء السوداء المرصعة بالنجوم.. تثاءب مرة أخرى وتمتم قائلاً:

– ليحرسنا الله..

– انتصف الليل وهبت نسمات باردة تعبث بأغطية النائمين وشعلة الفانوس التي أخذت تقاوم.. ولم يعد يسمع سوى شخير خافت من هنا

وهناك.. وبينما كان الجميع مستسلماً لسلطان النوم.. تدافعت أمواج من ثعابين وعقارب الصحراء السامة بهدوء واندست بينهم دون أن يشعروا بها.

1994/8/18

obeikan.com

متى تشرق الشمس؟

حين أصبح الفجر على وشك الظهور، وقبل ثوان من إشراقه، وبينما كان مستلقياً على سريره يقرأ في كتاب، شعر فجأة بأن الزمن قد توقف به.. وعلى ضوء المصباح الذي يشع خلفه، لاحت التفاتة منه إلى ساعة الحائط أمامه مباشرة، فوجد عقرب الثواني قد توقف وتوقف معه صوته الذي كان يتلاحق برتابة.. أحس حينها أن دهراً بأكمله يمر من أمامه شريطاً دون أن يعي شيئاً منه في الوهلة الأولى وبقي محملقاً كالأبله إلى عقرب الساعة وفجأة ودون سابق إنذار.. ساوره شيء من الخوف، ثم سرت في كيانه كله رعشة عنيفة كأن سلكاً كهربائياً قد مس أطرافه، وهو يرى ذلك العقرب قد بدأ يتحرك، يصاحبه ذلك الصوت الرتيب، تك.. تك.. ولكن كانت حركة العقرب تسير إلى الخلف، تملكه الرعب والدهشة والحيرة وقشعريرة أخذت تجتاح كل جزء من جسده، وآلاف الأسئلة سرعان ما حلت فوق رأسه تتكاثر وتدق رأسه بعنف وقوة.. وجاء صوته مكتوماً منزعجاً والغموض يلف وجهه.

"ماذا حدث يا ترى؟! وكيف حدث؟! ومن وراء ذلك؟! وما هو المقصود؟!...؟

أزداد الغموض يلفه ويضيق بخناقه أكثر فأكثر وأحس بأنه قد انحشر في زاوية مظلمة تضيق به، تضغط على أنفاسه ولازالت مطارق

الأسئلة تنهال بعنف على رأسه، تأوه بألم، حاول الصراخ.. ولكن جاء صوته مكتوماً..

"يا إلهي.. ما هذا؟! ما الذي يحدث لي؟! ماذا يدور من حولي؟!.. ما كل هذا؟

حدق أمامه جيداً، كأنه يحاول أن يستكشف هذا الغموض، لعله يجد ولو جواباً واحداً لسؤال واحد من تلك الأسئلة التي تدق رأسه بعنف.. فلم يجد شيئاً سوى تلك البقعة الشاحبة من الضوء والظلام الذي يزداد سواداً.. ترك الكتاب من يديه وفرك بهما عينيه، فربما كانت حولهما غشاوة يحاول أن يزيلها حتى يرى بوضوح، وقعت عيناه على الساعة التي يسرع عقربها في الدوران الرتيب وصوته المألوف وهي تشير إلى الثانية بعد منتصف الليل، انتصب جالساً على السرير.. تساءل بخوف ودهشة وحيرة ورعب ورعشة تسري في جسده..

– "هل أصدق ما أرى؟! هل أنا في حلم؟! الساعة تدور إلى الخلف، ذلك شيء أغرب من الخيال.. كلا.. ذلك ليس كابوساً مطلقاً.."

الساعة تسير ببطء.. وعقاربها تقترب من منتصف الليل.. وكان قد تسمر على سريره ولم يعد قادراً على أن يحرك قدمه أو يده.. ليس هناك شيئاً يراه غير ذلك العقرب اللعين وهو يدور إلى الخلف ويسمع صوته الرتيب..

وصل به الخوف والرعب إلى قمة رأسه.. ومطارق الأسئلة لازالت تنهال عليه بقوة وعنف وجسده المرتعش والمتسمر على السرير ووجهه

الذي بدأ يفقد لونه، لم يعد يطيق الاستمرار بذلك الأسر الإجباري، فأخذ يقاوم، أخذ يصارع الهواجس التي تكالبت عليه من كل جانب كما تتكالب الذئاب الجائعة، أخذ يدفع بتلك الأوهام وكتل الخوف والدهشة والحيرة التي أصبحت أعماقه حلبة لصراعها العنيف..

وعيناه تنظران في الفراغ زائغتان وفمه شبه مفتوح وقد أخذ لون وجهه يمتقع ويعلوه بداية الاصفرار، الحادية عشرة ليلاً.. يستسلم وقد خارت قواه، مضى به الوقت سريعاً، شعر بأنه قد أسترد شيئاً من قوته التي ذهبت.. العاشرة مساء.. أخذ يقاوم من جديد.. استمر على هذا الحال وقتاً لم يعرف مقدار ما مر منه.. خارت قواه مرة أخرى.. أخذت أنفاسه تتلاحق.. شعر بأن شيئاً ثقيلاً يجثم على صدره..

التاسعة مساء.. الوقت يجري إلى الخلف وعقرب الثواني لازال يتحرك إلى الخلف يجر صوته معه.. وقوته التي انهارت أخذ يحاول أن يستجمعها من جديد، الثامنة مساء نظر إلى الساعة.. استطاع أن يستجمع قوته من جديد ونهض بقوة من سريره وهو يصرخ كما يصرخ لاعب "الكاراتيه"..

– "الحمد لله.. لقد تخلصت من ذلك الشيء.. أنه رهيب.. شيء مخيف.. تقدم نحو النافذة التي تطل على الشارع نظر من خلالها فرأى كل شيء في الحارة يسير إلى الخلف.. أزداد وجهه اصفراراً.. ضربات قلبه قد أصبحت مسموعة وأنفاسه تتلاحق وعيناه زائغتان.. وجسده الذي لم يستطع أن يبعد عنه تلك الرعشة التي أصبحت تلازمه.. جاء صوته عميقاً..

– "لا أستطيع أن أكذب نفسي.. ولا أستطيع أن أصدق أن ذلك يحدث أمامي.. ماذا حل بهذا الزمن يا إلهي.. كل شيء يسير إلى الخلف؟!!

الأسئلة لازالت تتوالى قرعاتها بعنف وقوة على رأسه، الحيرة والغموض تزداد حدتهما على وجهه.. السابعة مساء.. قرر أن يخرج إلى الشارع ليستطلع الأمر بنفسه فربما وقف على أمر هذا الشيء الغريب الذي يحدث.. أخذ منشفته متجهاً إلى الحمام.. تخيل له أن قوة تجبره على السير إلى الخلف، ولكنه كان يقاومها.. ينجح تارة ويفشل تارة أخرى.. اغتسل، وغير ملابسه ووضع ساعة يده على معصمه، نظر إليها كانت هي الأخرى تشير إلى السادسة.. وقف بناصية الشارع أمام منزله، وقد شد انتباهه أولاً عندما رأى ضوء الشمس قد أخذ يزداد، ترسل ضوءاً برتقالياً وأخذت ترتفع تدريجياً إلى الأعلى.. صرخ بصوته المكتوم..

– "يا إلهي.. أنني أرى الشمس تشرق من مغيبها. فهل اكذب ذلك؟!.."

ازدادت ضربات قلبه تشتد، نظر إلى ساعة يده ليرى عقربه يتحرك إلى الخلف وقد أصبح صوته يعلو حتى اختلط مع ضربات قلبه.. والأسئلة لا ترحم رأسه من طرقاتها المتسارعة والحيرة تزداد كثافة على وجهه..

– "سبحان الله.. أهي حقيقة أراها أمامي؟!! أم تراني واقع في أحلام اليقظة؟! أو ربما يكون حلماً؟! ولكنني مستيقظ.. عيناي مفتوحتان على اتساعهما.. إذاً.. ما هذا الذي أراه يا ترى؟!..

رأى أحد الناس يسير في اتجاهه بخطوات إلى الخلف حتى توقف أمامه مباشرة.. وفجأة سمعه يصرخ ثم يبدأ صوته في الخفوت حتى هدأ ووجد نفسه يسأله عما حل بهذا الزمن.. رفع يده ولكن الرجل تركه ومضى سائراً إلى الخلف حتى اختفى.. أرهقه التفكير وهو يلاحق الرجل بنظرات لا يدري كيف يصفها.. وأخذ يفكر بألم.

– أقسم أنني لم أفهم كلمة واحدة مما قاله.. كان يقول أشياء غريبة.. كلماته لم أسمع مثلها من قبل.. كأنني أسمع كلمات مقلوبة.. ما هذا يا إلهي؟! أنه شيء يبعث على الحيرة والقلق؟! ماذا حل بالزمان والمكان..

الشمس ترتفع أكثر فأكثر.. الساعة تشير إلى الرابعة.. ازداد وجهه اصفراراً، وضربات قلبه تتسارع بشدة.. أطرق يفكر تحت طرقات الأسئلة التي ما فتأت تطارده.. وأهمل الزمان والمكان.. هبت رياح خفيفة، لفحت وجهه انتبه لذلك، ليجد أن الشمس قد توسطت السماء.. الناس يسيرون إلى الخلف يزداد عددهم ليقل تدريجياً، الوقت يمضي به وهو على الرصيف.. سيارات تسير إلى الخلف.. الحادية عشرة صباحاً.. كل شيء أمامه صار لغزاً بضخامة الجبل وثقله، ضربات قلبه لازالت تتسارع أنفاسه أخذت تتلاحق والاصفرار ازداد على وجهه كان يرى الناس وكأنه يرى فيلماً من نهايته. ولكن في الشارع وليس

أمام شاشة التلفاز.. اقترب رجل أخر منه وما أن وقف قبالة إلا وفاجأه بالصراخ ثم هدأ.. كاد أن يجن من فرط تلك المشاعر التي توخز ذهنه وقلبه كالإبر السامة..

– أرجوك أيها الرجل الطيب.. أنني في حيرة من أمري، هل لك أن تشرح لي ما يدور من حولنا؟! لماذا أرى كل شيء يسير إلى الخلف؟!

تركه الرجل كما تركه من سبقه، ليغرق في دوامة كبيرة لا قرار لها.. الثامنة صباحاً.. الأطفال من حوله يلعبون ويمرحون ولكن أصواتهم مقلوبة، حركاتهم إلى الخلف ألعابهم معكوسة.. بقي يحملق بهم وقتاً طويلاً كحيوان بري صغير كأنه يرى الدنيا لأول مرة في حياته.. الساعات تمر من حوله.. يتناقص عدد الأطفال يسيرون إلى الخلف.. حتى آخر طفل.. وخلى الشارع من ضجيجهم.. الخامسة صباحاً.. شعر بأن جسده بدأ يشتعل من فعل السخونة.. الاصفرار يزداد أكثر.. وأخذت الشمس تسرع إلى حيث يجب أن تشرق.. تتجه نحو الشروق لتغرب خيوطها الذهبية تسحبها معها وهي تغيب.. والظلام يزحف شيئاً فشيء.. حتى يحل الظلام تماماً.. أعمدة النور ترسل نوراً باهتاً على الشارع.. الرابعة صباحاً.. يرى أناساً يخرجون من المسجد بعضهم.. يسير بحركات أسرع كأنهم يجرون، وبعضهم يسير بخطوات عادية ثم سمع أذاناً لكن من نهايته.. اشتعلت السخونة بجسده وهو يصرخ بشدة كأن أفعى لدغته.

– "يا إلهي.. ما هذا؟!

هبت نسمات ريح باردة من كل جانب، تحاصره، تلسعه، سخونة جسده تزداد وقد صاحبته رعده خفيفة تزداد كلما مر الوقت الساعة تشير إلى الثانية.. يقترب منه شرطي يتوقف أمامه يرفع عصاه القصيرة وكلماته الغاضبة ثم يمضي بخطوات إلى الخلف.. يختفي.. تنتابه حدة سعال متقطع ثم تتواصل.. يمضي الوقت.. وقبل أن ينتصف الليل بدقائق، تزداد سخونة ولسعات البرد القارس تغرس أنيابها بقسوة في لحم جسده دون رحمة.. طوح بيديه على كتفيه كأنه يقي جسده من البرد. قشعريرة تجتاح جسده نوبة سعال طويلة وحادة، ووجهه قد أصبح كقشرة الليمون. نظر إلى ساعته فوجد عقاربها تقترب من منتصف الليل، أخذ يصارع تلك اللحظات الناهشة بجنون قوة جسده الهزيل أعاد النظر إلى ساعته وهو يلهث فوجدها قد توقفت عند منتصف الليل.. لم يعد بمقدوره المقاومة أكثر لكن أخذ يجاهد ليخرج صوته حزيناً وهو يتهاوى على الأرض..

– لماذا توقفت الساعة؟! لماذا توقف الزمن؟! ما الذي حل بنا يا ترى؟.. لقد انتصف الليل ثانياً دون أن تشرق الشمس، لقد كنا على أبواب فجر جديد؟! ماذا أصابني يا ترى!! يا إلهي.. ساعدني، أرجوك. لمن ستشرق إذاً؟! لمن تشرق..

قاوم طويلاً.. وصوته القادم من أعماق حشرجة الموت يقاوم هو الآخر، الانقباض الذي يشتد ويشتد وذهنه يقاوم قرعات الأسئلة التي ازدادت حدتها تتكاثر وجسده يقاوم البرودة وسخونته تزداد ارتفاعاً

ووجهه أصبح يكتسبه لوناً أرجوانياً.. وفجأة هوت مقاومته، سقط على الأرض.. مثل جذع شجرة.. وعقارب الساعة استمرت بسيرها إلى الخلف.

عدن

1994/8/22

obeikan.com

طائـر البحـــر

فـي الوقـت الـذي كنـت ممسـكاً بطـرف الخـيط بشـدة وطرفـه الآخـر مدلى إلـى البحـر لأشده إذا مـا بـدرت إشـارة مـا تـدل علـى أن سمكة قد علقت بهـا.. اقتـرب منـي شـخص لـم أنتبـه لـه.. جلس إلـى جانبي وأخذ يتطلع إلي ما أقوم بـه، وكنت مركزاً كل اهتمامي وحواسي إلي الخيط، خيل إلي أنني سمعته يتحدث بلغة عربية تدل على أنه ليس عربياً، في البدء لم أنتبه إليه لشدة انسجامي، ثم كرر حديثه مرة أخرى وهو يلكز كتفي برقة ليلفت انتباهي:

هل سمك كثيرة هنا؟!

التفـت إليـه لأجـد أمـامي رجـلاً أجنبيـاً، ظننتـه أحـد الخبـراء الـذين يعملـون لـدينا، كـان يرتـدي قميصـاً أبـيض اللـون بنصـف كـم وبنطـالاً قصيراً إلـى فـوق الركبـة ويبـدو مـن هيئتـه أنـه يقتـرب إن لـم يكـن يتجـاوز الخمسـين مـن عمـره، كـان شـعره أقـرب إلـى الرمـادي منـه إلـى اللـون الأبـيض وبعـض الـنمش المـزروع علـى وجهـه وسـاعديه.. قلـت لـه متسائلاً:

المعذرة.. لـم أنتبـه لوجودك هنـا بسـبب انشـغالي.. هل كنـت تتحدث معي؟!

قال ضاحكاً:

أنا عارف.. أنا عارف.. مافيش داعي..

ابتسمت له وسألته:

عن ماذا كنت تسأل؟!

أجاب قائلاً:

أنا فقط، سألت، سألت، هل سمك كثير هنا؟!

أمسكت بسلتي لأريه بفرح قائلاً: أنظر.. لا بأس.. لقد اصطدت سمكات. لا بأس بها خلال ساعة ونصف..

شدني الخيط، فأسرعت بسحبه ثقيلاً لتخرج سمكة تتأرجح وكانت أكبر من سابقاتها الأخريات، انتزعتها بفرح غامر ورميت بالصنارة ثانية إلى البحر قائلاً للرجل:

الحظ.. هل تؤمن بالحظ؟!

قال وهو يهز رأسه باسماً:

أوه الحظ.. نعم.. نعم.. أنا أيضاً..

قلت له وأنا أوزع اهتمامي بين الخيط والرجل..

الحظ يلعب دوراً لا بأس به، أحياناً لا أصطاد سوى سمكتين أو ثلاث خلال أكثر من ثلاث ساعات أو يزيد.. وأحياناً كما ترى عندما يبتسم لك، تعود إلى منزلك ومعك كمية لا يستهان بها.. أما إذا عاكسك الحظ فانك تعود دون شيء..

قال مبتسماً معلقاً:

هل هذا عملك يعجبك جداً؟!

قلت له:

كلا يا سيدي إن هذا ليس عملي. فأنا موظف حكومي، ولكن صيد السمك يعجبني كهواية أمارسها بعد الظهر.

سكت الرجل قليلاً ثم قال وهو ينظر إلى أسراب طيور البحر التي تغطي بأعدادها جزءاً هائلاً من البحيرة..

أنتم تحبون لحم طيور..!!

ومن يكره لحم الطيور.. دجاج، حمام و..

قاطعني قائلاً:

أنا مش دجاج وحمام أتكلم.. "مشيراً إلى طيور البحر" هذه الطيور هل تأكلونها؟!

أجبته مندهشاً:

كلا يا سيدي.. أننا لم نجرب ذلك. ولم نفكر به من أساسه..

قال بجدية:

أنتم لا تأكلوه.. لكن.. إذا جربتوها يمكن فكرتم، أحسن من دجاج وحمام.. نحن في بلادنا نأكله.. لحمه لذيذ.. فكروا..

قلت له بجدية:

نحن لسنا مثلكم.. أننا لم نفكر بهذا ولن نفكر مهما كانت الأسباب.

قال بدهشة: هل.. صعب؟!!

ليست هذه هي المسألة.. لكننا لم نعتد عليها، بل تعودنا أن نراها كل يوم.. عندما نذهب إلى أعمالنا أو نعود، وعندما نراها نشعر براحة كبيرة لأنها تجعل البحيرة جميلة بأشكالها وحركاتها وطيرانها.. وإذا فكرنا

بذلك فإننا سنخسر هذا الجمال.. ونحن نحب كل شيء جميل ولا نريد أن نخسره..

صمت قليلاً ثم قال مهمهماً:

أوه.. نعم.. جمال.. فعلاً هذا جمال.. جمال جداً.. منظر جميل.. عرفت كل شيء.. شكراً..

تركني مودعاً وذهب، أخذت أتطلع إليه وقد ترك في نفسي أثراً ما.. ولكن الخيط شدني ثانياً فانصرفت عنه لاهتم بما علق به..

مرت بضعة سنوات على ذلك الحوار أو الموقف مع ذلك الخبير.. وفي أحد الأيام وبينما كنا في طريقنا إلى أعمالنا أجلنا بأبصارنا نحو البحيرة كعادتنا التي درجنا عليها كل يوم لننعم بذلك المنظر الذي صار جزءاً صميماً في حياتنا، ولشد ما أصابنا من ذهول، وجدنا البحيرة خالية تماماً منها.. تساءل البعض بدهشة، كل يسأل من بجانبه حتى اشتركنا جميعاً في هذا السؤال المحير.. أين ذهبت الطيور؟! ولم نجد جواباً لذلك.. لا أحد منا يعرف.. بل صرخ أحدنا بألم.. لقد رأيتهم ظهر أمس.. كيف اختفوا هكذا؟!!

وخيم السكون المريب على رؤوسنا.. وحينها تذكرت فجأة ذلك الحوار الذي دار بيني وبين ذلك الخبير، وتساءلت بحيرة.. "أمن المعقول أن يأتوا عليها جميعاً؟!" استبعدت ذلك الاحتمال لصعوبة تنفيذه.. ولكنني أحسست في داخلي أن شيئاً ما كأنما قد انتزع مني انتزاعاً..

ومر يوم ويومان وأسبوع وشهر ولم يظهر طائر واحد.. ونحن لازلنا نتوجه بأنظارنا إلى البحيرة كل يوم دون جدوى..

وفي أحد الأيام.. بينما ذهبت إلى نفس المكان الذي أمارس فيه هوايتي في صيد السمك، وكان الوجوم على وجهي.. لاحظت صفاً طويلاً من السيارات على جانب طريق البحيرة والجانب المقابل، ورأيت عشرات بل مئات من الناس يجلسون على دكة البحيرة والمرارة تطفح من عيونهم ووجوههم، تركت هوايتي وذهبت إلى هناك وسمعت الناس تبحث عن أسباب اختفاء طيور البحر المفاجئ يتحدثون عنها بأصوات مليئة باللوعة والأسى، تشعر بمرارتها القاسية.. مرت بضعة أشهر.. وفجأة في صباح أحد الأيام انتبه الناس على صرخة قوية نقلتها الرياح إلى كل مكان.. كانت صرخة رجل يقول بفرح عظيم:

الطائر.. لقد وصل الطائر.. لقد جاء الطائر..

هبت المدينة عن بكرة أبيها إلى مصدر الصوت لترى ذلك الطائر الذي كم أحبوه وكم حزنوا على فقدانه، وعند وصولهم إلى البحيرة، لم يجدوا شيئاً وظهرت علامات استياء عظيمة على وجوههم نحو الرجل الذي بادر قائلاً:

لقد رأيته.. أقسم أني رأيته.. يجب أن تصدقوني.. أنه بشير خير..

عاجله أحد الناس بلهفة:

وإلى أين اتجه؟!

وبلهفة أخرى قال رجل آخر:

ومن أين جاء؟!

وسأل ثالثاً بلهفة لا تقل عن سابقيه:

هل مكث في البحيرة؟!

قال الرجل:

لقد رأيته قادماً من الشرق يطير بسرعة محلقاً على بعد عشرات الأمتار في اتجاه الغرب، ولكنه لم يحط في البحيرة، بل أستمر في طيرانه حتى اختفى هناك..

سكت الجميع وهم ينظرون في اتجاه الغرب حيث أشار الرجل وقد أصابتهم خيبة كبيرة، خيمت على وجوههم نوبات من الألم والمرارة.. عاد الناس بعد ذلك أدراجهم من حيث أتوا.. وليس في حديثهم سوى زيارة طائر البحر بعد هذه الفترة الطويلة..

كانت الحسرة تعصف بكلماتهم وهم يتحدثون عن ذلك اللغز المثير وراء سر اختفاء تلك الطيور التي لم يصدقوا أنها قد اختفت وهي التي عاشت معهم وعاشوا معها عشرات السنين حتى صارت جزءاً لا يمكن الاستغناء عنه أو انتزاعه من عالمهم الجميل.

قلت في نفسي وأنا انظر إلى الناس أحس بما يحسون وأعاني كل ما يعانونه:

لعلني كنت في قرارة نفسي، أشك بعودة الطائر مرة أخرى، إلا أن الناس لازال يعيش في أعماقهم ثمة أمل خفي وقوي بعودته.. ورغم ذلك كنت أشعر حقاً أنني أعيش الأمل معهم بعودته من جديد، لأنه ليس من طائر لا يعود إلى وطنه ولو لف العالم بأسره.

عدن

1995/6/7

هل لهذا الحب.. من نهاية

في ذلك اليوم، منذ سنوات طويلة، عندما تعرفت بك لأول مرة في حياتي، شعرت أنني قد وقعت في حبك من أول نظرة.. ومع مرور الوقت. رغم أننا كنا لا نلتقي سوى مرة واحدة في الشهر – أخذ حبك يغوص في أعماق قلبي بيد أنني لم أكتف بذلك، فقد أردت أن أعرف مقدار حبك لي.. كان ذلك السبب هو الذي دفع بي لأن أطلب منك أن نلتقي كل يوم، أو حتى مرة واحدة في الأسبوع أو مرتين في الشهر، لكنك أقنعتني بعدم مقدرتك على فعل ذلك، لأنك لا تملك أمر تعديله بيدك باعتباره أمراً خارجاً عن نطاق إرادتك. كنت صادقاً معي في حديثك، لم أشك مطلقاً أنك تعمدت تبرير ذلك، بل اقتنعت بمنطقك لأنني قد لمسته منك عن قرب ولذت بصمتي سعيدة بشوقي الحار الذي انتظرك به في زيارتك لي.. كان يوم الرابع والعشرين قد حفر أرقامه في أغوار روحي وأصبح بالنسبة لي يوماً موعوداً خالداً لا ينسى رضخت له مستسلمة، راضية لقدري الجميل، يزيد حبي لك أكثر، ويجعل احتياجي إليك يتعاظم باستمرار.. لقد أصبحت لي كل شيء في حياتي، وان قلت غير ذلك، فأنني أكذب على نفسي قبل أن أكذب عليك، فهل أستطيع أن أكذب على نفسي التي تعيش متربعاً على عرشها؟! لست أنكر بأنني سلمت لك قلبي وعقلي وروحي ونفسي

طواعية وبكامل إرادتي، حتى تشكلني كيفما شئت، دون أن أبدي أي اعتراض.. ولست أخشى أحداً عندما أقول بحق، نعم، أنني انتظرك لتعطيني كل ما يرضي غروري ونزقي ونزوتي وما أرغب به، دون أن أطلب منك قدر ما تقوي عليه. رغم أنك لم تطلب مني يوماً، شيئاً على الإطلاق، ومع ذلك فقد كنت أجهد طاقتي كي أعطيك ما أستطيعه، بل وفي أحايين كثيرة أبذل من أجلك ما يفوق طاقة جهدي، ولا أشعر بسعادة حقيقية إلا إذا شعرت أنني قد أرضيتك حقاً وقدمت لك ولو جزءاً يسيراً مقابل عطاءاتك الكثيرة لي..

بقيت تلك العلاقة بيننا تحتفظ لنا بتلك الحدود التي فرضتها علينا الظروف وحبي لك يزداد تطوراً شهراً بعد آخر وعاماً يتلوه عام، وشعلة علاقتنا المتوقدة في أعماق صدري تزداد اشتعالاً أكثر، لم يؤثر عليها ذلك السير الرتيب كروتينية حركة عقارب الساعة.. عندما كان يحين موعد لقائنا المرتقب، كنت أشعر بفرحة عارمة تهز كياني كله.. وأحاسيس تمتزج بمشاعر كثيرة ومتنوعة لا أستطيع أن أصفها وهي تنتابني حينها.. لا أخفي عليك سراً إذا قلت لك، أن أقصى ما أتمناه في حياتي، أن ألتقيك دوماً، أن أضمك إلى صدري وأذهب بك إلى كل مكان، أن أخذك من يدك وأسير إلى جانبك متباهية بك أمام كل الناس، أن أصرخ بين ذراعيك بالتياع تتفتح على أثره كل مسامات جسدي من شدة الفخر بك أمام زميلاتي.. بل كثيراً ما كنت أحلم أنني قد حققت ما أتمناه.. رغم معرفتي أن ذلك لم يكن سوى أضغاث أحلام، إلا أنني لم أنس أبداً، أنك قد أصبحت جزءاً هاماً يرتكز عليه مستقبلي،

بل أستطيع أن أجزم بكل ثقة أن مستقبلي كله مرتكز برهن إشارتك أنت الذي ترسمه، وأنت الذي تشكل لونه وحجمه وذوقه في حياتي كلها.

استمرت علاقتنا تسير على ذلك المنوال، كنت فيها صارماً بالتزامك حريصاً باحترامك موعد لقائنا، لم تتأخر عنه دقيقة واحدة، ذلك ما جعلني ارتبط بك، ويزداد ارتباطي بك أكثر كلما مر الوقت..

فجأة.. حدث ما لم يكن في حسباني مطلقاً.. حدث ما لم أكن أتصوره أو أنني كنت قد فكرت فيه مجرد تفكير أو كنت أتوقع حدوثه في يوم ما.. انقطع حضورك حسب الموعد لأكثر من ثلاثة أشهر.. كان الخوف قد ارتسم على وجهي، ظهر القلق طافحاً كل تصرفاتي، خشيت أن يكون مكروهاً قد حل بك، ثم ظهرت بعد ذلك ولكنك لم تأت حسب الموعد المتفق عليه.. جئت متأخراً عنه بأيام.. فرحت برؤيتك سليماً معافى، وبقدر ما كانت فرحتي بلقائك كانت صدمتي كبيرة لا تقاس، كنت أطمع منك بلمسة حنان تعيد لنفسي اتزانها وتهدئ قلبي المضطرب ولكنني وجدتك تتجاهلني تماماً.. كأنك لم تعرفني من قبل، أو كأنك قد نسيت ما بنيناه معاً خلال تلك السنوات الطويلة، كأنك.. ربما كأنني غريبة عنك تماماً رغم ذلك حاولت أن أبحث عن مبرر، حتى أدافع عنك أمام نفسي التي أخذت تساورها المخاوف القاتلة وتحاصرها من كل جانب.. لم استطع، بل بدوت أمام نفسي مكسوة بذهول عظيم لقد كنت في دهشة من أمري، لم أصدق ما رأت عيني.. فكيف استطيع أن أقنع نفسي بشيء لم أقتنع به..

تكرر غيابك ثم تأخرك لأكثر من مرة.. شعرت حينها أن تصرفاتك نحوي أخذت تتغير مرة أثر أخرى.. وفي لحظة ضعف قاسية تمنيت بكل صدق أن يكون سبب تغييرك المفاجئ مجرد طارئ لم يكن بيدك سوى الإذعان له، فينقشع بعدها وتعود إلى كما كنت في سابق عهدك. تشبثت بتلك الفكرة كما يتشبث الغريق بقشة وسط أمواج عاتية كالجبال هديرها كالرعود القاصفة، فربما هدأت نفسي، وطردت أشباح الوساوس التي حلقت فوق رأسي تنخر ذهني وقلبي بأنصال سكاكينه الحادة. أنك تعرف مقدار حبي وتعلقي بك وتعرف أيضاً كيف انتظر لقائك بلهيب وشوق وحرقة.. لكنك لم تفعل سوى العكس، تماديت بتصرفاتك الغريبة أكثر فأكثر. وكأنني ارتكبت جرماً بحقك لتعاقبني بذلك العذاب المرير.. لقد أخذ الألم يعتصر قلبي كما تعصر حبات السمسم. ليس أمامي إلا أن أعيش الحيرة والجوى والخوف وذلك الألم الطافح وسؤال مخدوع يترنح في حنايا ضلوعي.. هل يا ترى سينقشع ذلك الضباب ويعود الأمس من جديد؟!

لقد أصبحت تختار وقت اللقاء كيفما تشاء. ووقتما تريد، دون أن تكترث لما قد يسببه لي ذلك من مضايقات تجثم على أنفاسي بقسوة لم تعد أعصابي تحتمل المزيد.. شعرت أنك تتلذذ بتعذيبي. لقد مزقت تلك الخيوط التي رسمتها جميلة في أحلامي فانقلب الأمر رأساً على عقب.. لقد كنت تأتي إلى لألتقيك بلهفة وشوق كبيرين، فأصبحت أنا الذي أبذل كل ما بوسعي حتى أفوز بلقائك.. والأشد مرارة من ذلك أنني قد أحببتك الآن، ربما أكثر من أي وقت مضى.. فماذا تراني أفعل

لك؟! لقد قسوت على قلبي المتيم بحبك الجامح دونما سبب وأكثرت في إيلامه.. فهل لقسوة هذا الحب من أن تنتهي يوماً، وترفق بقلبي الهائم بك؟! وهل تستكثر أملي وأمنيتي في أن تعود إلينا أيامنا الخوالي؟! وهل هي غمامة صيف سوف تصفي السماء مرة أخرى؟!! مهما كان الأمر.. سأتقبله كيفما يكون.. ويكفي أن تعرف جيداً . أن تحقق ذلك أو لم يتحقق . أنني سأظل أحبك أنت وحدك مهما قسوت عليّ.. وأحتاج إليك دون غيرك ولو سمتني ألوان العذاب.. سأظل أحبك حتى ولو طال الزمن.. يا راتبي الحبيب..

1995/9/27

openkan.com

obeikan.com

الهروب إلى الجحيم

توقفت في منتصف الطريق الذي جاءت منه، وهي تلهث بشدة، وتتلفت خلفها، كأنما ثمة من يطاردها.. كان الخوف مرتسماً بوضوح شديد على قسمات وجهها الذي أكتسى بالعرق وجسدها يرتعد من قسوة الرعب.. أوقفت سيارة أجرة مرت في الطريق التي وقفت على رصيفه وكأن الحظ قد ساقها إليها.. فتحت الباب بيد متوترة وقبل أن تلقي بجسدها الذي أنهكه التعب على المقعد الخلفي، ألقت نظرة فاحصة مرعوبة كي تتأكد من خلو الطريق، ولتطمئن من أن أحد لم يتعقبها، أغلقت الباب خلفها لترمي إلى السائق بضعة كلمات، مهزوزة، مرتجفة وبصوت متلعثم.. وما أن انطلقت السيارة تنهب الطريق، حتى تنفست الصعداء ثم جالت بذهنها صور تلك اللحظات المرعبة والقاتلة التي لم تصادف مثلها منذ أن وعت نفسها تعيش على هذه الحياة، وهي لا تعلم حتى لحظتها تلك، كيف استطاعت أن تنجو بنفسها بتلك الأعجوبة.. أطلقت زفرة فيها شيء من الطمأنينة، وألقت برأسها إلى الخلف.. لقد كانت لحظات من أصعب لحظات حياتها، بل أنها كالجحيم، إن لم تكن الجحيم نفسه.. عاد إليها بعض الهدوء وإن كان يشوبه القلق والخوف الذين لازالت آثارهما باديان على ملامحها.. كانت الأفكار والتساؤلات تدق رأسها بعنف.. هل يمكن لها أن تصدق ما جرى لها يا

ترى؟! هل كانت تعيش حلماً مرعباً جثم على صدرها مثل كابوس مجنون لم تستطع أن تطرده أو تفيق منه إلا بصعوبة بالغة الجهد؟! أم أنها الحقيقة الواضحة بكل تجلياتها المرعبة؟! كانت تهز رأسها نفياً.. كأنها لا تريد أن تصدق أن ذلك قد حدث فعلاً، ورغم أنها حقيقة مؤلمة، ترفض مجرد التخيل، كان ذلك المدرس الذي ظلت سنوات طويلة تعتبره مثلها الأعلى، تقدره أيما تقدير وتحترمه كثيراً بل وتكن له في أعماقها معزة كبيرة.. كان يبدي استعداداً طيباً في تلبية بعض ما تطلبه منه في شرح ما استعصى عليها فهمه في مادته، لكن الوقت لم يكن كافياً للإفاضة بشرح ذلك الدرس، ومع ذلك لم يجرؤ على استدعائها إلى منزله فهناك لديه متسع من الوقت لأن يجيب على كل أسئلتها، ولكنها طلبت منه ذلك، وكعادته قبل طلبها وأبدى استعداده لمساعدتها متى ما أرادت، قبل طلبها بدماثة أخلاق رجل لم تر في هذا الزمن الأغبر من يضاهيه أو يملك ولو الشيء اليسير منه، سلوكه لا يمكن أن يرقى إليه شك، متواضع بطبعه وعلاقته بالجميع علاقة حميمة مما جعله إنسان جدير بالثقة.. تزفر بعمق وأسى وألم، وهي تتذكر تلك اللحظات المحزنة.. لقد جاءت حسب الموعد، ليستقبلها ببشاشة في منزله الذي يعيش فيه وحيداً.. لم تكن تفكر أو يخطر في ذهنها مجرد خاطر، أن تراه في صورة أخرى غير تلك التي تراه فيها.. وهذا ما جعلها تحزم أمرها للذهاب إليه وليس في ذهنها سوى تلك الصورة البديعة التي رسمتها في مخيلتها عنه وما سوف تلقاه من عناية وتكريم وما ستفوز به من شرح إضافي لكل ما يخطر في ذهنها أو ما

يحلو لها أن تسأله.. بل كانت سعيدة بزيارته أشد ما تكون السعادة، تكاد تطير من الفرحة، تتعجل الخطو لتصل في الوقت المحدد إليه.. "فيا لسوء حظي.. وتلك النفس الأمارة بالسوء".. تمزقت تلك الفرحة التي جاءت ترفل بثوبها الفضفاض.. تحطمت تلك الصورة الجميلة التي بقيت عالقة بذهنها تلك السنوات الطويلة.. كادت الصدمة غير المتوقعة وهول المفاجأة أن تكبلان حركتها وتشلها لتصبح فريسة سهلة، تتمزق بين أصابع ذلك الإنسان الذي . وإن فكرت بأسوأ الاحتمالات . لن تفكر مطلقاً بأن ثمة إساءة ربما قد تلحقها منه.. اغرورقت عيناها بالدموع وهي تتذكر ذلك.. لكن الصدمة التي تصيب إنسان لا يتوقع حدوثها، يمكن لها بالمقابل أن تشحن الجسد الهزيل قوة تفوق ثقلها وتنجو في اللحظة المناسبة من موقف يحمل في أعماقه مجرد ثوان معدودات تكون كفيلة بأن تغيير مجرى حياتها في ومضة عين.. فهل تصدق بعد كل ذلك أنه ليس هناك إنسان ما يستحق منها مثل تلك المشاعر الجياشة التي كانت تحملها بكل براءة وصدق وإخلاص لشخص ذلك المدرس الذي جاءت إليه، كأنما بنظره لم تأتِ إلا لتحمل إليه نفسها وشرفها وعرضها في طبق من ذهب وتضعه باستسلام لذيذ ليفعل بها ما يريد؟!.. لقد شكرت ربها كثيراً على منحه إياها ذلك القدر من القوة لتنزلق كالزئبق من بين يديه الوحشيتين، ونيته الشهوانية المبيتة، وتنقذ نفسها من ذلك المأزق الذي كادت أن تدفع فيه أغلى ما تملكه الفتاة.. زفرت بعمق وهي تغمض عينيها، لتملئ رئتيها بعبير انتصارها لكرامتها. وكم كان جميلاً.

فجأة أحسّت أن السيارة قد أخذت تخفف من سرعتها، لتتوقف.. هيأت نفسها لتغادرها، ولكن تجمدت نظرات عينيها من خلال زجاج النافذة لترى أنها في مكان غريب لم تعرفه من قبل.. سألت السائق وهي تتلفت حولها بشيء من الدهشة وإحساس غريب شعرت به.. لم تجد حولها سوى صحراء ممدودة على مدى البصر.

– ما هذا المكان أيها السائق؟! لقد طلبت منك أن توصلني...

قاطعها السائق وهو يحدق إليها بنظراته الملتهبة عبر المرآة التي تتوسط أعلى زجاج مقدمة السيارة:

– لقد وصلنا..

هالها صوته الذي بدا لها ليس طبيعياً، وأفزعتها نبرته التي شعرت من خلالها بإحساس غامض.. فلاحت التفاتة منها دون قصد إلى المرآة لتصطدم عيناها بتلك النظرات الشبقة التي تتطلع إليها كما يتطلع الجائع إلى طبق طعام شهي.. وهنا أطبق الخوف والرعب عليها دون رحمة.. فسألته كأنها تجس النبض:

– لماذا جئت بي إلى هنا؟! وما هذا المكان؟!

نظر إليها عبر المرآة قائلاً لها بلهجة بدت تخرج عن الذوق العام وكأنه يقصد الدخول مباشرة في حديث لا يريده أن يكون مبطناً، بل واضحاً لها..

– هذا مكان لا تعرفيه ولن تعرفيه، وأما لماذا جئت بك إلى هنا، فذلك شيء أخر.. لقد رأيتك تتصرفين بطريقة غريبة، وهذه الطريقة

توحي لنا نحن السائقين بالكثير، كأن تكون إشارة من الراكب نفهمها بأن الزبون يريد نزهة..

قالت الفتاة وقد تملكها خوف حقيقي:

– ماذا تقصد؟!

ضحك السائق مواصلاً حديثه بنفس تلك النبرة السابقة بل وأكثر من وقاحته..

– أنك منذ أن صعدت وأنا أحاول أن أجد جواباً لسؤالي من خلال محاولتي لقراءة تعابير وجهك، فلم أجد سوى الارتياب الذي جعلني أشك بك.. (يدير برأسه إليها) هل تعرفين أيتها الفتاة الجميلة، أنني ما كنت قد فكرت أن آتي بك إلى هنا.. لكن جمالك الأخاذ وتصرفاتك الغريبة حركت في داخلي ثعابين ما كان لها أن تتحرك..

شل جسدها رعب أعظم من ذلك الذي عاشته في تلك اللحظات في منزل المدرس، وكبس على أنفاسها خوف بثقل الجبل، لم تجد حينها ما ترد عليه وقد انحبس صوتها في بركان بكاء أحر من الجحيم ذاته وقد عرفت تماماً موقفها الذي يدعو إلى الرثاء.. مرت ثوان، خالتها سنوات عجاف ودون أن تشعر أنفجر صوتها مصحوباً بحمم البكاء الحارق.

– سيدي.. أيها الرجل الطيب.. أرجوك.. أتوسل إليك، أن تدعني لحالي.. لقد اختلط عليك الأمر.. أنني لست من تلك اللواتي.....

كان الشرر يقدح من عينيه وهو يلتهم جسدها بنظراته المخيفة.. قاطعها بصوت له رنة خسة ودناءة، يسيل من طرف فمه خيط لزج ينحدر إلى أسفل ذقنه كلعاب ذئب جائع..

– وفري كل ما تريدين قوله أيتها الجميلة، لأنه لا طائل من وراءه، صدقيني... (ضحك ساخرا) ولم أطلب منك أن تصدقي.. ليس هذا شأني في أن أدفعك لذلك.. ولكن يجب أن تعرفي أيتها الباقة اليانعة، لقد حاولت أن أتمالك نفسي كل هذه المسافة، أن أمنع ثعابين بطني من الحركة ولم أفلح وعندما وجدتك تجلسين صامتة، انحرفت عن الطريق الذي طلبتي أن أوصلك إليه، ولكنك ظللت صامتة، حينها فحت هذه الثعابين اللعينة.. ولم أعد استطيع أن أسيطر عليها، وعندما تفح، فأنني حينها قد ألجأ إلى أن أقدم على أي شيء يقف أمامي حتى لو لجأت إلى القتل.. ليس ذلك أمر يهمني إطلاقاً.. هل تفهمين ما قلته أيتها الحسناء؟!

كان جسدها يرتعد بشدة وهي تحاول جاهدة أن تتغلب على ذلك الشعور القاتل الذي يعتصر أعماقها عصراً.. ولازال بركان بكائها يرسل حممه دموعاً ساخنة تجري على خديها كجدولين رقيقين..

– إنني واثقة أن لديك بقية من مشاعر وأخلاق، استحلفك بالله أيها الرجل الطيب أن تشفق على ضعفي.. تذكر أن كان لديك ابنة في مثل سني قد تعرضت لمثل هذا الموقف، ماذا سيكون شعورك؟! أرجوك يا سيدي، لم أصدق نفسي أنني تخلصت من جحيم كاد أن يلتهمني لولا عناية الله الذي أرسلك لي منقذاً.. فهل أصدق أنني خرجت من جحيم لأهرب إلى جحيم آخر؟؟! وكيف أصدق ذلك؟!! هل تريدني أن أقبل قدميك؟! سأفعل ذلك.. لكن..

خبط السائق ظهر المقعد بعنف ووحشية وهو يصرخ بجنون..

– اسمعي أيتها الفتاة وعي قولي جيداً، أنني ما جئت بك إلى هنا لأسمع منك مثل هذا الموشح.. لقد سمعته كثيراً، كثيراً جداً، ولكن رغم ذلك فأنني آخذ ما أريده.. أصرخي بملء فمك، بكل ما تستطيعين من قوة.. لقد فعلت الكثيرات من قبلك ولكن عندما وجدن إن ذلك لم يجديهن شيئاً فالبعض منهن استسلمن دون أن يلحق بهن الأذى، والبعض الأخر أخذت تقاوم أو تفتعل ذلك.. فنلت منهن ونلن مني الأذى.. انظري حولك، وتمعني جيداً لن ترين سوى صحراء يخيل للناظر إليها أنها لا تنتهي، يعني، عليك أن تفهمي أنه لا يمكن لشياطين الأرض أن تتجول هنا غيرنا نحن، وكل منا إذا صادف موقفاً مثل موقفك الآن، فأنه لن يتدخل أقصد أن هذا المكان لا يعرفه سوانا نحن السائقون.. (يغير لهجته بصوت يفح فحيح يثير التقزز وتقشعر منه الأبدان) إن كنتِ لا تحبين الإيذاء الذي يصنعه العنف بسبب الرفض.. فسأكون وديعاً معك – ذلك وعد أقطعه لك، وسوف أوصلك بعد ذلك إلى حيث ترغبين دون مقابل.. (يضحك ضحكته المتعجرفة وهو يفتح باب سيارته الأمامي ويغلقه ويبقى واقفاً أمام الباب الخلفي منتظراً خروجها وعندما لم تخرج أحنى جذعه يحدثها من نافذة السيارة وهو يرسم ابتسامة قبيحة لا معنى لها) هل ترغبين الخروج أم تفضلين مقعد السيارة.. قفزت الفتاة إلى الباب الأخر تحاول فتحه وهي لا تزال تبكي وحمم دموعها يغسل خديها فلما عجزت عن فتحه أطلقت صراخها وهي تدق بقبضتي يديها الرقيقتين زجاج الباب الخلفي كان الخوف يرتديها كما يرتدي الرعب المحكوم عليه بالإعدام..

– أنقذني يا إلهي.. النجدة.. إلحقوني.. أنجدوني.. يخنقها بكاؤها المحرق ولم تعد قادرة على الاستغاثة فتظل تدق الزجاج بيديها ورأسها معاً بانفعال ليس به سوى ذلك الرعب القاتل..

وعندما يضيق السائق ذرعاً بعنادها يفتح الباب ويرمي بجسده على المقعد الخلفي مثلما الحيوان، لكن الفتاة تنكمش على نفسها تنظر بعيني باكيتين كأنما تطلبان الرحمة وقد سكتت عن الصراخ واكتفت بالبكاء والنحيب..

قلت لك إن ذلك لن يجديك شيئاً، فلماذا لا تصدقين أيتها الجميلة؟! أنني لا أرغب حقاً أن الحق الأذى بهذا الجسد الرقيق لأنه لا يستحق ذلك.. ولكن يبدو أنك لا تريدين أن تفهمي ذلك.. فإذا ظللت كذلك، فلن يكون أمامي خيار غيره.. أنني أشفق على هذا الجسد البض من الأذى.. فكري جيداً.. أنني على يقين أنك لا تحتاجين إلى العنف.. أما حاجتي فسوف أنالها..

كانت تنظر إلى عينيه اللتين أعمامهما الشر تماماً والشبق ينزف منهما.. أعملت تفكيرها بحثا عن وسيلة كانت تدرك جيداً أن الخلاص من هذا الجحيم ليس بمقدورها أن تقوم به.. ولكنها شعرت برغم جبال الرعب والخوف أن ثمة هاتف يدفع بها لأن تقاوم حتى ولو كان الثمن حياتها وكأنها ترمي بأخر سهم تملكه..

– كيف طاوعت الشر في نفسك أيها الرجل؟! إلا ترحم دموع وضعف فتاة لا حول لها ولا قوة؟! لقد رفضت أن أسلم عذريتي لغيرك، فهل تعتقد أنه يمكنني أن أسلم لك نفسي بهذه الصورة؟!.. هل يريحك

أن تحمل ذنباً على كتفيك طول حياتك؟! أعرف أنك تستطيع أن تنال ما تريده كما أعرف جيداً أنني لن أستطيع مقاومتك.. ولكن ليس بتلك الصورة التي تريدها.. صدقني يا سيدي أنني فتاة عذراء فعلاً ولست على استعداد لأن أعيش بقية عمري أحمل عاري الأبدي على كتفي.. فأن ذهبت هي فسألحق بها.. ولتحل عليك لعنة الله..

زمجر السائق بعنف وهو يصرخ بصوت كالخوار بعد أن سدد صفعة قوية بوجه الفتاة..

أيتها الساقطة، لقد حكمتي على نفسك بيدك.. ولن ينقذك من بين يدي أحد، يبدو أنك اخترت الطريق الصعب، فليكن ذلك اختيارك أنت..

وبلمح البصر هجم عليها بقوة وشراسة تاركاً يداه تمزقان ملابسها.. لم تستلم بل أخذت تدافع عن نفسها وهي تصرخ بكل ما أوتيت من قوة.. وهكذا دارت معركة عنيفة غير متكافئة وكلما كانت تقاومه بضراوة، كلما ازداد حدة وقسوة تدفع به شهوته الحيوانية واشتهائه المجنون.. وبعد صراع عنيف لم يستمر طويلاً وفجأة كفت الفتاة عن المقاومة، خارت قوتها وخمد صوتها وهمدت حركاتها.. ظن السائق أنها استسلمت، بل أنه نجح في شل حركتها.. لعلعت في أعماقه أصوات شبقه وانطلق صوته فحيحاً أسال من فمه لعاباً لزجاً.. هتف شيء ما في داخله..

ما أجمل وأشهى وأطيب شيء لا تحصل عليه إلا..

تسمر فجأة وهو يحملق بوجهها الذي كساه الاصفرار الشاحب..

قفز السائق مذعوراً خائفاً يتصبب عرقاً بارداً:

– ماذا حدث؟! يا إلهي.. ليس من المعقول أن تكون قد...

شعر بأنه قد ارتكب جريمة شنعاء فأين سيذهب من حبل المشنقة تحول من ذئب شرس جائع إلى حيوان خائف يرتجف وأخذ خوفه يتصاعد ولا يدري ماذا يفعل أربكته حيرته تماماً، أخذ يلملم ما مزق من ملابسها ليغطي بها جسدها العاري وهو يناديها تارة ويربت على خدها تارة أخرى بيدين مرتجفتين.. كان قد وصل إلى حالة يرثى لها.. وفي خضم معاناته تلك لمح حركة من رأسها.. كانت كفيلة بأن تجعله ينط من الفرحة.. أسرع بزجاجة ماء يرش بها وجهها حتى عاد إليها وعيها، وما أن فتحت عينيها كادت أن تصرخ ولكنها ابتلعت صرختها عندما لمحت ابتسامة ارتسمت على وجهه، كانت تلك الابتسامة قد جعلتها تدرك بحدسها الأنثوي أنها لازالت على البر ولم تهرب بعد إلى الجحيم..

1995/11/18

obeikan.com

خاتمة الزواج

انتهى تقريباً من مهمته التي انغمس فيها قبل ساعة ونصف، وقبل أن يغادر المنزل، نظر ملياً إلى نفسه من خلال المرآة ليتأكد أن كل شيء على ما يرام.. بدلته الجديدة التي اشتراها قبل أيام خصيصاً لهذا اليوم، تكاد تطير به، أنها مناسبة تماماً وجميلة وأنيقة بل اتضح له أنه جميل بها وأنها تتناسب وهذه المناسبة التي ظل ينتظرها أكثر من ثلاث سنوات.. كان وجهه ينضح بالفرحة العارمة التي تكاد تنط من كل خلية ومسام من خلايا ومسامات وجهه، مرر يده اليمنى على جانب رأسه ليعيد خصلة شعر خرجت من مكانها، أخذ زجاجة العطر زكي الرائحة وضغط على غطائها بأصبعه ليتطاير رذاذه على صدره وكتفيه وجانبي وجهه وشعر رأسه، ثم إلى باطن إحدى يديه ويعيد الزجاجة إلى مكانها ويفرك يديه معاً.. أطلق صفير فرح ومرح مدندناً بأغنية اختارها لهذه المناسبة نظر إلى المرآة مرة أخرى، سكت وهو يرى عينيه وأطلق زفرة زهو وافتخار ثم رفع حاجبه الأيمن وغمز لنفسه بعينه اليسرى بسرور مخاطباً نفسه.. وأخيراً تحقق الحلم.. ابتسم ابتسامة كبيرة مستطرداً.. "إنني لست مصدقاً نفسي حتى هذه اللحظة أن حفل الخطوبة سيتم هذه الليلة، مع أن ذلك هو الأمر الواقع، لقد كان مجرد حلم جميل.. يا لهذه الأقدار؟! رغم كل الصعوبات إلا أنني استطعت أن أحقق ما كنت

أتمناه، وأحول الحلم إلى حقيقة، وما هي إلا لحيظات – ينظر إلى ساعته – نعم، سأذهب إليها وأصطحبها لشراء خاتمي الخطوبة.. هيا يا أخي، أنك في أجمل شكل وأروع يوم في حياتك.. لقد أزف الوقت، كفاك غروراً، أنها في انتظارك على أحر من الجمر".

ابتسم لنفسه ثم غمز ثانياً وهو يرفع يده مودعاً.. إلى اللقاء.. وأسرع بعد ذلك مغادراً المنزل..

عندما التقيا قبل أكثر من أسبوع، كان ذلك اللقاء مصيرياً بالنسبة لهما معاً.. وفيه سيحددان مصير هذه العلاقة التي ربطتهما منذ أكثر من ثلاث سنوات عندما تعرف كل منهما بالآخر في ذلك اليوم الذي لا يمكن نسيانه إلا وقد شعر كل منهما أنه قد غرق حتى قمة رأسه في بحر الحب والهيام واللوعة والاشتياق، لم يكن أحد منهما يعلم أن ظروفاً صعبة ومواقف شرسة ستقف لهما بالمرصاد. ولكن بقدر عمق وقوة الحب الذي وطد قدمه في قلبيهما، استطاعا معاً على اجتيازها والانتصار عليها واحدة بعد أخرى، كان الموقف الأول ظهور ابن خالتها الذي يكبرها بعامين وبعض العام، والذي وصل من غربته ليبقى بضعة أشهر ليتم مراسم الخطوبة من ابنة خالته والعودة إلى تلك البلاد التي يعمل فيها.. والموقف الثاني هو ابن عمها الذي أنهى دراسته الجامعية خارج البلد وهو الأخر يفكر في الزواج منها.. وموقف والدتها المتعنت، فهي أن أصرت على شيء فعلته وألا فلتنهد الجبال فوق رؤوس الجن والأنس.. وقد أقسمت أن تكون ابنتها من نصيب ابن أختها المغترب.. وموقف والدها الصارم والحازم بأنه لن يقبل زوجاً

لابنته سوى ابن أخيه الذي سبق وأن أعطى عهداً له منذ سنوات بعيدة وهي لم تتعد السادسة من عمرها بعد عندما طلبها منه أخوه في ذلك الوقت المبكر فلم يكن منه إلا أن أكد لأخيه بأن ابنته لن تكون زوجة لأحد غير ابنه الذي يكبرها بأربعة أعوام.. وبين موقف أمها وأبيها من هذه المسألة كان دائماً ما يأخذ طابع التحدي والإصرار بينهما خاصة إذا ما جرى الحديث عن زواج ابنتهما ويدخلان في معركة حامية الوطيس، فتزداد الأم تمسكاً بموقفها بعناد شديد، ويزداد أبوها تمسكه بقراره، كان ذلك الصراخ بينهما لا ينتهي غالباً، بل وفي كل مرة إلا بأن يؤكد كل منهما على موقفه، ويتحدى الأخر قائلاً: "سترى ذلك" فيجيب الثاني: "بل سنرى من سيكون قراره هو الذي يفرض نفسه".. وأخيراً عندما اقتحم بيتها تصلب الأب وجن جنون الأم.. ورغم تلك العواصف، كانت الفتاة تجيبهما دوماً إذا ما طلب أحدهما أن تعلن الخطوبة على ذلك الذي رشحه لها.. فترفض بإصرار معللة ذلك أنها لا تفكر في هذا الأمر. والأهم لديها هو أن تنهي دراستها الجامعي.. وكانا يرضخان لهذا القرار.. والآن وقد أكملا دراستهما معاً.. ولم تمض بضعة أشهر إلا وأستلم كل منهما وظيفته التي تناسب مؤهله، ومضت ثلاثة أشهر أخرى.. كأنا يحافظان على موعد لقائهما.. كانت تأتي إليه لتخبره عن كل جديد يدور في منزلها.. لقد زاد إلحاح والدها على أن تحدد اليوم المناسب للخطوبة، في الوقت نفسه يزداد إلحاح والدتها على نفس ذلك الطلب.. وسرعان ما يتركانها لشأنها عندما ينشب بينهما

الصراع الذي لا تدري متى سينتهي.. فأمها تصر بأنها لن تتزوج إلا على ابن أختها وسترفض أي إنسان أخر طالما لازالت على قيد الحياة.

في كل لقاء يجمعهما ليس هناك ما يقولانه سوى، نقل أخر التطورات التي جرت معها. وبعد أن تنتهي الفتاة من سرد ذلك الهم الذي يقتلها كل يوم.. إلا وتظللهما الحيرة بظلها القاتم، ويجثم الصمت المرعب والخوف من المجهول على صدريهما.. فيبقيان هكذا وقد تمتد بهم إلى ساعة أو ساعتين أو أكثر من ذلك قبل أن يفترقا.. لم تكن تطلب منه أن يجد لها مخرجاً أو يفكر معها بهذا الشأن لأنها تدرك أنه يتعذب هو الأخر مثلما تتعذب هي.. ولكن رغم ذلك يظلان متشبثان بذلك العهد الذي قطعاه على نفسيهما بأن كل منهما لن يتنازل عن موقفه قيد أنملة مهما كانت الظروف ومهما بلغت حجم الصعوبات التي قد تواجهه وبالقدر نفسه لن يذخر جهداً إذا تطلب الأمر لتقديم التضحيات أي كان نوعها..

ذات يوم دعاها للقاء عاجل.. كان على وجهه إصرار عجيب.. نظرت إليه مشفقة وبلهفة.. قال لها بعد فترة صمت قصيرة بصوت هادئ رغم أنه لا يخلو من شبح الخوف الجاثم على صدره إلا أن به قدر من التحدي..

– لقد فكرت ملياً يا عزيزتي.. أعرف أنك تقاسين الأمرين، وتتحملين من أجل ذلك فوق طاقة البشر.. وأنا أتعذب مثلما تتعذبين.. لقد أنهكني التعب والتفكير المضني، لابد أن نعمل شيئاً ما.. أن نبدأ نتحرك.. لا أستطيع أن أقول لك إلى متى ستظلين هكذا؟! وهل

تستطيعين المقاومة؟! لابد وأن يأتي يوم ما ونفقد فيه مقدرتنا على الاستمرار وربما تكون النتيجة وخيمة.. أنني لا ألومك إذا عجزت وقبلتي إرادة أحد والديك.. بل ستكونين في نظري تلك الإنسانة التي بقدر ما أعطت بقدر ما أخذت، وبقدر ما قاومت بقدر ما عجزت... سكت وهو يزفر بضيق بينما كانت تتجمع الدمعات في مقلتيها، تسقط دمعة مهرولة إلى أسفل ذقنها، كانت تشعر حينها أن سكيناً يتوغل في كبدها ويمزقه.. لم تكن قد شعرت بما فيه اليوم في أي يوم كان.. كان شعور غريب.. لا تدري كيف تفسره.. لكنه نظر إليها وأستطرد قائلاً: "ربما قد تتساءلين عن سبب دعوتي لك".. (يسكت وهو يدلى برأسه إلى الأرض محاولاً أن يعيد الهدوء إلى صوته) لقد فكرت.. ووجدت شيئاً ربما يفيدنا.. ليس أمامنا سوى هذا الحل كخطوة أولى.. أن تواجهين ابن عمك وابن خالتك كل منهما على حده وأن تحاولي إقناعهما بالأمر الواقع وتصرين على موقفك أمامهما، وأن تعترفي لهما بالحقيقة إذا تطلب الأمر ذلك؟!.. إنني أدرك صعوبة موقفك هذا.. لكننا يجب أن نختصر الطريق ونحاول بتر جذور العذاب الذي يذبح آمالنا ومستقبلنا.. هذا هو الحل.. وهو الخيار الوحيد.. فان نجحتِ بذلك سيكون ضماناً كافياً لتعديل موقف والديك.. وفي الوقت نفسه سوف يعطيني قوة أكبر لأن أبدأ بالخطو الثانية..

نظرت إليه.. وكان خطان من الدموع يسيران متعرجين إلى أسفل وجهها وقد أشرقت ابتسامة جذابة.. حركت رأسها إيجاباً.. لم تستطع أن

تتحدث مدت يدها لتضغط على يده كأنها تطلب منه أن يعذرها أو ربما كانت إشارة شكر.. نهضت وأطلقت لساقيها الطريق..

عملت بما أوصاها.. ورغم ما عانته من لذعات السخريات المريرة التي كان يقذفها بها ابن عمها وابن خالها، تنزل على جسدها كرماح تلتهب جمراً، إلا أنها استطاعت بجهد خارق وجبار أن تظل متماسكة متمسكة بكل كلمة قالتها ولن تتنازل عنها مطلقاً بدت تلوح لها بوادر النجاح تدريجياً قرر ابن عمها أن يتركها وشأنها ليتزوج من فتاة أخرى وكانت صدمة والدها الذي لم يتوقع ذلك مطلقاً فذهب وعنف أخاه على موقف ابنه وعدم اعتراضه بل ومباركته لذلك الخطأ الذي ارتكبه ابنه.. كان غاضباً، ثائراً.. استطاع أخوه أن يمتص غضبه وثورته وأقنعه أن ما فعله ابنه يعتبره حقاً مشروعاً له.. وأن المستقبل لا يستطيع أحد أن يفرضه على الآخرين.. وعلى كل إنسان أن يختار الطريق الذي يراه هو مناسبا له..

كان زواج ابن عمها قد أغرى ابن خالتها لخلو الطريق من منافس له عليها، وكان أيضاً موضوع شماتة وجدت منه أمها فرصة لأن تصلي زوجها بلهيب سياطها.. ورغم كل المحاولات التي قام بها ابن خالتها ليثنيها عن موقفها وضغوط والدتها التي زادت حدته أكثر لكنه كان يصطدم بموقفها الواحد والواضح، وكانت النتيجة واحدة.. وهذا ما دفع به أخيراً أن يتركها مكرهاً وطلب من والدته أن تصرف النظر عن مسألة زواجه من ابنة أختها ولم يمض يومان إلا وفعل ما فعله ابن عمها، حيث تزوج من فتاة أخرى اختارتها له والدته نكاية بأختها وابنتها

المتمردة.. وبعد أيام من زواجه أخذ زوجته وسافر إلى تلك البلاد.. كانت المصيبة قد حاقت بأمها كما كان الأمر مع والدها لكنها لم تستطع أن تقول شيئاً خوفاً من أن ينتقم منها زوجها لنفس الموقف.. ففضلت أن تصمت.

هكذا بدأت جلاميد الخوف تتزاح عن صدريهما وأخذت غيوم الحيرة والقلق تتقشع من سماء حياتهما، وأن ينخلع من الجذور ذلك الخوف الذي استوطن أعماقهما.. كانت تنقل له كل ما تفعله بالتفصيل، ليستمد منه القوة على الاستمرار والتماسك بذات النفس.. قرر أن يخطو الخطوة الجادة والمنتظرة..

كان ذلك اللقاء الحاسم الذي جمعهما، حيث اسمعها قراره، فهي قد نجحت في تمهيد الطريق وعليه يقع الآن تنفيذ الخطوة التالية.. رغم تحذيرها له بأن الوقت لازال مبكراً وأن الطريق سيكون محفوفاً بالمخاطر، إلا أنه أصر على القيام بدوره.. لقد أراد أن يشعرها أنه لم يتركها تواجه مصيرها بنفسها ولكنه كان واقفاً إلى جانبها وسيكون ذلك خير دليل كي يزرع في أعماقها بذور الأمل وأن ينزع عن جسدها كل ما علق به من أشواك.. وأضاف مؤكداً قوله مبتسماً بأنه قد دبر كل شيء وسيبدأ العمل.. وسوف يزورهم مساء الغد..

وهكذا بدأ خطوته وبدت الصعوبات تخطو معها.. في البدء رفض والدها مقابلته.. لكنه لم ييأس. كرر الزيارة مرة أخرى ورفض الأب مرة أخرى مقابلته.. وزارهم في اليوم الثالث ولم ينل أكثر مما ناله في اليومين السابقين.. لم يفقد الأمل.. كرر الزيارة يوماً أخر وفشل وحاول

مرة أخرى.. وهنا استجاب الأب هذه المرة وقابله ولكنه رفض طلبه.. تحمل كل ذلك بصبر وجلد لأنه يعرف جيداً أن أمل الالتقاء بها لقاءاً أبدياً لابد وأن يكون مفتوحاً، وأن أغلق في وجهه يجب أن يعمل جاهداً لفتحه.. أخذ يكرر زياراته، كان يزداد إلحاحاً في طلبه. لكنه رغم كثر الزيارات التي كان يكررها ويعيد فيها طلبه فلم يجد سوى الرفض.. شعر أنه في كل مرة يذهب إلى زيارتهم التي أصبحت يومية. أن إصرار والدها قد أخذ يقل حدة وتمسكه بموقفه يتبدد بعض الشيء.. وهذا ما كان ينتظره.. فكان بالقدر الذي يقل إصرار الأب يزداد إدراكه بتحقيق طلبه يكبر.. كان موقف أخيه وابن أخيه، وكذا ما فعل ابن شقيقة زوجته وأمه قد زعزع في نفسه موقفه السابق وإصراره القوي الذي ظل متمسكاً به طيلة سنوات طويلة، بينما هذا الفتى الذي جاء طالباُ يد ابنته وإلحاحه وزياراته المتواصلة قد بدأ يعيد إليه تلك الثقة التي تزعزعت، وبفضل هذا الإصرار العجيب جعله بعد مراجعة طويلة مع الذات أن يعترف بالأمر الواقع ويعترف بصدق نواياه وقوة موقفه وتمسكه به بهذا الشكل ورأى أنه لا مناص من قبول طلبه.. بل والأدهى من ذلك أنه شعر بنفسه يميل إليه يوماً بعد يوم.. وأخيراً قرر الأب. وأعلن موافقته ولكنه أشترط عليه أن يجهز نفسه لحفل الزفاف بعد شهر واحد من إتمام الخطوبة..

وصل الفتى إلى منزل فتاته ليصطحبها إلى محل المجوهرات والحلي ليشتريان خاتمي الزواج والاستعداد لإقامة حفل الخطوبة الذي سيتم مساء ذلك اليوم.. كانت الفتاة استعدت بكامل زينتها قبل وقت

مضى وبقيت تنتظر قدومه بلهفة مجنونة وشوق حارق وفرحة عظيمة، حتى أنها ما أن سمعت أولى طرقاته على الباب، قفزت تودع والديها لتخرج..

دنا الأب بنظره ذات معنى إلى زوجته المتربصة وقال لها غامزاً في قناتها:

– أنه شاب رائع، أخلاقه مستقيمة وصادق في قوله وفعله وملتزماً بموقفه، أنني بصراحة أحسده على ذلك، فهو ليس كالآخرين، الذين يتحركون دون إرادة منهم إلا بما تملئ عليهم النساء..

اختفت الابتسامة بسرعة عن وجه زوجته التي ودعت بها ابنتها وقالت مؤنبة:

– الأولى بك أن تعيب موقف أخيك وابنه.. أخوك الذي ارتبطت معه بكلمة شرف منذ سنوات طويلة، ذلك أفضل من لوم الآخرين..

كانت تلك الشرارة كافيه لأن تشعل الموقف بينهما وصراعهما يحتدم وصراخهما يعلو أكثر فأكثر..

اختارت الفتاة خاتماً أعجبها فقاسته وقاست خاتماً اختاره لها.. دفع ثمنهما وانصرفا والسعادة تزغرد فوق رأسيهما وفرحة عارمة تشبثت بملامح وجهيهما أحسا أن تحت أقدامهما فرشت سجادة المستقبل الباسم لهما يخطوان عليها بثقة كبيرة وهما يتبادلان الأحاديث الودية والابتسامات العذبة..

كانت سيارة مسرعة تسير بمحاذاة الشارع.. وفجأة تحول ذلك الشارع إلى خلية نحل، تقاطر الناس من كل مكان وامتلأ الجو صخباً ولغطاً وعويلاً وصراخاً تتداخل الكلمات فلا تسمع إلا بعض العبارات:

– إلى المستشفى..

– يجب الإسراع، قبل فوات الأوان.

– أرجعوا السيارة إلى الخلف أولاً..

وقع بصر أحد الناس الذين تجمعوا على علبة حمراء صغيرة بالقرب من قدمه.. أخذها وفتحها فوجد فيها خاتمي زواج..

1995/2/1

obeikan.com

دخان وسيجارة تشتعل

أخذ نفساً عميقاً من سيجارته، ونفث دخانها من فمه وانفه بتلذذ عجيب، ظل ابنه ينظر إليه بصمت منذ أن أشعل السيجارة وراح يمتصها نفساً آثر أخر دون أن يعيره التفاته أو بعض اهتمام.. مضت دقيقة وبعض الدقيقة، والصمت يلفهما إلا من صوت خافت لأشخاص يتحدثون من التلفاز، لم يجد الابن بداً من الإفصاح بعد أن اجتاحه استياء بالغ بسبب ذلك الشعور البارد الذي يغطي ملامح والده مما جعله لا يهتم به أو حتى يكترث بوجوده..

– أنك تسمع عن مضار التدخين، وتعرف جيداً ما يسببه من أمراض، مجرد دخان وسيجارة تشتعل، لكنها تؤثر ليس على الذي يتعاطاها فحسب ولكن على الآخرين أيضاً، ورغم ذلك، فأنت ترمي بكل ذلك خلف ظهرك.. ألا تخشى على صحتك يا أبي؟!

نفث الأب دخاناً كثيفاً من أنفه وفمه، وقال بطريقة لا مبالية، دون أن يكلف نفسه النظر إليه:

– سمعت ذلك مراراً.. كف عن العبث..

أخذ يمتص سيجارته بعمق مما دفع بالابن ليس إلى الصمت ولكن لأن يعاجله بإصرار، ونبرة تحدي برزت في صوته بوضوح:

– ليس ما قلته عبثاً حتى أكف عنه.. بل العبث هو تجاهلك المستمر لما نقوله، ولن نسكت عنه، بل وستظل تسمعه طالما بقيت..

قاطعه الأب بحدة ولكن دون أن يلتفت إليه:

– صه، لا تكن مثل أمك.

قال الابن مستدركاً، ولكن يغير لهجته التي بدأ بها:

– ولكنك لن تتأثر بها وحدك.. بل ستؤثر أيضا على من حولك، الم تفهم ذلك؟!

خطف الأب نظرة جانبية إلى ابنه دون أن يحرك رأسه وقد أغضبه ذلك السؤال.. فقال له بصوت غاضب تغلفه بعض السخرية:

– وهل أمسكت بيدك عنوة يا بني؟! إذا كنت تخشى على نفسك من التأثير، فاخرج إلى الشارع إذا أردت؟!

أجابه الابن بعناد الأطفال:

– إنني أتابع أحداث المسلسل، وأنت تعرف ذلك جيداً. حتى أنني لا أستطيع الذهاب إلى الحمام.

قال له والده بهدوئه البارد كذلك الشعور الذي يكسو وجهه.

– حسن.. إنني أفهم تعلقك بهذا المسلسل اللعين، أجلس إذا أردت، ودعني أدخن بهدوء..

رغم حيرته كان يعرف والده تماماً، أطلق زفرة غاضبة خفيفة حتى لا يسمعها ولكن قال بنبرات صادقة وان كانت تخفي في طياتها مسحة من التشفي:

– أعرف أنك لن تجرؤ على هذا القول لو كانت أمي تجلس معنا..

نظر الأب إليه بعينين تقدحان شرراً وغضباً وقد ضغط على فكيه بقوة حتى خرج صوته الغاضب من بين أسنانه مهدداً متوعداً:

– ولد!! حذار أن أسمعك ثانياً تردد ذلك أمامي؟!.. هل أوصتك أمك كي تراقبني وتنغص عليّ هدوئي؟! أو أراك قد أخذت على عاتقك مهمتها في ملاحقتي والتنكيد عليّ؟! أذهب، هيا، أذهب وأيقظها إن شئت، أعوذ بالله من الشيطان، ومنك ومن أمك معاً.. أسمع.. إذا أردت أن تتابع مسلسلك التافه، فتابعه لكن بهدوء.. أحداثه تدور أمامك على شاشة التلفاز، وليست على وجهي.. وإذا لم ترد، فليس هناك سوى خيار واحد من اثنين، أما أن تذهب إلى فراشك وتنام كما فعلت أمك؟! أو أن تخرج إلى الشارع. هل فهمت؟! لا أريد أن أسمع منك أيضاً مزيداً من التنكيد..

خفض الابن صوته وقد اصطنع ابتسامة ما لعله يحاول أن يمتص غضب والده:

– أنني ما قصدت إغضابك يا أبي، وكيف أجرؤ على فعل ذلك؟! ولكن أليس من حقي أن أخاف عليك وعلى صحتك من أي مكروه ربما قد يلحق بك؟!

أمتص الأب ما بقي من السيجارة ثم هرسها في قطعة صغيرة من ورق بيده ثم لفها بعصبية بالغة ورمى بها في سلة المهملات، نظر إلى ابنه نظرة ذات معنى وقال:

– اسمع يا بني.. لقد أنهيت دراستك الثانوية قبل أسبوع أو يزيد، وأمامك وقت طويل مليء بالفراغ الممل، أعرف أن ذلك الفراغ يتعب

الإنسان.. لماذا لا تذهب للبحث عن عمل ما قد يفيدك بعض الشيء، ريثما تفتح الكلية أبوابها؟!

قال الابن بدهشة:

– لست أفهم يا أبي ما دخل هذا بذاك؟! أرجو ألا تغضب، لقد أخبرتك يوم أمس أنني وجدت عملاً ما وسأبدأ به بعد ثلاثة أيام.. أم أنك قد نسيت؟!

حملق الأب بعيني أبنه.

– لم أقل ذلك أيها الأحمق.. ولست غاضباً إن كنت تريد أن تعمل حقاً أم لا؟! ذلك شانك أنت.. ولكن عليك ألا تتدخل فيما لا يعنيك..

أحس الابن بخجل شديد أربكه تماماً، ولكنه استطاع أن يضغط على انفعاله، وقال متردداً محاولاً أن يجد لنفسه مخرجاً من مأزق وقع فيه:

– لا أستطيع أن أقول شيئاً غير انك ستظل أبي الذي أحبه واحترمه وأطيعه، ولم أفكر في يوم ما بذلك مطلقاً، ومن أكون أنا حتى أسمح لنفسي لأن أتدخل في شؤونك يا أبي؟! ولكن.. عندما تجول في خاطري تلك المواقف وأتذكرها جيداً أجدك دائماً تقف أمامي مرشداً تنصحني ألا أصرف نقودي في شراء الحلويات أو تلك الأشياء التي كنت أحب اقتناءها عندما كنت طفلاً أراك وأنت تقول لي: لماذا ترمي بنقودك في أشياء لا فائدة منها و...

صرخ الأب يقاطعه معنفاً وقد أحمرت عيناه واحتقن وجهه حتى بدا شكله مخيفاً:

– كيف تجرؤ على قول ذلك السخف أيها العاق؟! لا تنسى بأنني لازلت اصرف عليك، وأبذل من أجلك كل غال ونفيس حتى أوصلك إلى الجحيم الذي تريده أنت.. عندما أفعل ذلك، إنما أفعله لأنه واجبي نحوك.. ولست انتظر يوماً – إن كنت تظن أو تعتقد – أن أمد يدي إليك حتى تعطيني ثمن غذاء أو قيمة حذاء أو قميص أو حتى زجاجة دواء.. هل فهمت؟! أنني لازلت أملك أمر نفسي جيداً ولا أحب أحداً أن يحاسبني أو يسألني أين أصرف مالي وكيف؟! أو حتى أن يشير إلى ذلك قصداً أو تلميحاً مهما كانت الظروف والأحوال..

قال الابن بصوت خفيض، بدت كلماته ترتعد:

– أبي، أرجوك.. أنني ما قصدت ذلك..

قاطعه الأب على نفسه السابق:

– هل سمحت لك أن تتكلم؟! لا يجب عليك أن تقاطعني طالما أنني لم أكمل حديثي بعد!! لا يهمني تبريرك أو محاولتك للدفاع عن نفسك، ذلك لن يفيد في شيء على الإطلاق.. لا اهتم أن كنت تقصد أو كنت على خلاف ذلك.. ولكن يجب أن تعرف جيداً.. أن علبة السجائر، التي بسببها تشنان عليّ الحرب، لم يشتريها لي أحد.. ليس من حق أي إنسان مهما كان أن يسألني عن شيء ما اشتريه يوماً ما لنفسي.. وإنما هناك مسألة أخرى.. هل قصرت بواجبي نحوك أنت وأمك بشيء؟! وهل أضررت بحقكما يوماً؟! أن حدث هذا يمكنكما حقاً في مساءلتي.. أنني أجهد نفسي حتى أغطي كل مطالبكما كاملة دون نقصان.. وبالقدر نفسه فأنني لا اذخر جهداً في توفير كل شيء من

أبسطه إلى أهمه.. (خفف من حدته قليلاً لكنه لازال متمسكاً بصراخه) لقد جعلت سعادتكما وإسعادكما هدفاً اسمى لحياتي، اسعى جاهداً لأن أوفر أسبابها وأحققها، فان كان يعوزها شيء لا ارتاح قط، قبل أن استكملها، وان اكتملت أحاول بكل السبل أن أبقيها عند ذلك الحد. وليس ذلك فحسب بل وربما أضيف إليها أكثر كلما رأيت ذلك ممكناً.. لم استكثر عليكما شيئاً مهما بلغ حجمه وقيمته.. فلماذا تشعلان عليّ الحرب عندما أرغب في تدخين سيجارة؟! إنكما تستكثران عليّ فعل ما أحب أن أفعله.. رغم أن ذلك لم يمس يوماً أي من متطلباتكما.. ولم أفكر يوماً أن أشعل حرباً ضروساً ضد أي منكما إذا رغب في شيء مطلقاً مطلقاً..

تدخل الأم وقد استيقظت بسبب صراخ زوجها وآثار النوم بادية على عينيها، كما ظهر الانزعاج والغضب الشديد على وجهها بوضوح توقف الأب عن الحديث عندما يراها مقبلة نحوهما، كان صوتها الحاد هو أهم ما يميزها.

– ما الأمر؟! ماذا حدث؟! لمَ كل هذا الصراخ؟! لقد أفزعتماني وأطرتما النوم عن عيني، ماذا جرى؟!

قال الأب بصوت خافت معتذراً وكأنه يريد أن يصرفها.

– ليس هناك شيء على الإطلاق، لا تقلقي، لقد.. كان نقاش بيننا، وأشتد دون أن نشعر.. المعذرة إذا كنا قد أزعجناك.. اذهبي للنوم يا عزيزتي..

تنظر إلى أبنها كأنها تنتظر منه حقيقة ما حدث لكنها تراه صامتاً بل اكتفى بأن يهز رأسه إيجاباً.. فجأة تغزو انفها رائحة ما.. تنظر إلى زوجها ولازالت تتشمم ككلب صيد..

– هل تظن أنك أفلحت في إقناعي يا زوجي العنيد كالتيس؟! إذا كنت قد أخفيت العلبة حتى لا أراها.. فسوف تخطئ إن ظننت أنك تستطيع إخفاء رائحة دخانها..

نهض الابن وقد بدا عليه أنه قد غرق في بحر الحرج والخجل فأثر الانسحاب متجهاً نحو غرفته..

– سأذهب إلى فراشي.. أتمنى لكما ليلة سعيدة ونوماً هانئاً وأحلاماً وردية..

دخل الابن غرفته وأغلق الباب بينما لم يستطع الأب أن يبادله التحية بل اكتفى بهز رأسه مبتسماً.. لكن سرعان ما اختفت ابتسامته عندما وقعت عيناه على زوجته التي تنتظر الإجابة منه وقد عقدت يديها حول خصرها:

– ماذا دهاك يا امرأة؟! لما تقفين هكذا، هل تستعدين لخوض معركة حامية الوطيس مع ثيران اسبانيا كلها؟!

أطلقت صوتها الحاد وكأنها تئن:

– لا تحاول أن تغير الموضوع.. لقد تسلل دخان قطارك إلى أنفي وأنا نائمة حتى ظننت إنني أحلم أن هناك ثمة حريق يشتعل في مكان ما.. أين هي العلبة؟!

زفر زفرة عميقة محاولاً أن يعيد إلى نفسه الهدوء بعد تلك الجولة التي خاضها مع ابنه ليستعد لمعركة من نوع آخر لا يعلم إلا الله كم تدوم قال بصوت هادئ:

– عليك أن تعرفي أنه ليس هناك داع لأن تدخلينا في نفق لا ندري أين منتهاه.. إنها سيجارة واحدة وليس لدي غيرها..

أطلقت صوتها الحاد معربداً في الغرفة:

– وتعترف أيها التيس العنيد بكل هذه الوقاحة دونما ادنى خجل من أنك كنت تدخن؟!

نظر إليها نظرات تنم عن صبر ولكنها تشع بخبث:

– لقد لاحظتِ ذلك بنفسك يا زوجتي الحبيبة.. ولو كنت قادراً على إخفاء رائحة دخانها لفعلت.. وربما سار الأمر مسار أخر..

لعلعت بصوتها المعدني الحاد كطلقات الرصاص:

– هل تتعمد إيذائنا أيها الرجل؟! ماذا فعلنا بك حتى تمضي بعنادك وتزرع جو البيت بهذا السم؟! قلت لك مراراً إذا كنت لا تهتم بنفسك وبصحتك، فاخرج إلى الشارع إذا شئت، هذا شأنك وحدك.. ولكن ليس من حقك أن تعرض الآخرين وصحتهم لضررك.. احترم ذلك على الأقل..

هز رأسه وقد بدت علامات الغضب تصبغ وجهه بظلالها حاول بما يملك من جهد أن يتمالك أعصابه من الانفلات:

– حسناً يا زوجتي العزيزة، سأفعل كل ما تأمرين به.. أرجو أن تقبلي اعتذاري عما بدر مني، ولن أكرر ما فعلته أبداً.. أعدك بذلك..

زمجرت غاضبة وقد نهش الغضب وجهها وغرس مخالبه الحادة ثنايا ملامحها:

– ليست هذه هي المرة الأولى.. لقد مللت سماع هذا الاعتذار الذي تلوكه وتكرره كل مرة.. متى ستكون عند وعدك؟! انك تتصرف كالتيوس الحمقى، وربما كان الأطفال أكثر منك تعقلاً واتزاناً..

جاهد الرجل جهاد الجبابرة وهو يحاول أن يمنع نفسه من الانفجار:

– إن صراخك لا يفيد يا زوجتي الغالية.. يجب أن تعرفي ذلك جيداً.. أنك ستزعجين الجيران، فليس من اللائق أن تطلقي صوتك حتى أخره وتقلقين هدوء الآخرين، ولا تنسي أننا في وقت قد تجاوز منتصف الليل.. أرجوك أن تهدئي قليلاً، وإذا كنتِ تريدين أن تتمسكي بصراخك فلا بأس، يمكنك الاحتفاظ به حتى صباح الغد.. أذهبي إلى فراشك يا عزيزتي وغداً سنكمل ما بدأنا.

شعرت الزوجة أنه استطاع أن يلجمها تماماً وأحست أن شيئاً ما يداخلها ينفجر بقوة، وان حمم براكين غضبها تنطلق من أذنيها وانفها وفمها بل ومن كل مسامات جسدها الذي أخذ يرتعد كمن أصابته الحمى الشديدة.. نظرت إليه بعينيها الغاضبتين ترميه بشواظ ذلك البركان المتفجر، ولم تلبث برهة إلا وقد أخمدت ثورتها العنيفة بقوة، فأعطته ظهرها وانطلقت كالصاروخ إلى فراشها..

تنهد طويلاً وبارتياح كأنما قد تخلص من صخرة عظيمة جثمت على صدره طويلاً.. هز رأسه وهو يخاطب نفسه:

– "لست أدري كيف تقبلت الأمر بهذه السهولة؟! أنني في غاية الدهشة والذهول، كيف أصدق ذلك؟! عجباً إن بدأت بصراخها وعويلها لا يمكن أن تهدأ حتى وان سكبت على رأسها برميلاً من الماء المثلج.. حينها ليس أمامي سوى أمر واحد وهو أن أترك المنزل لساعتين أو أكثر حتى تهدأ تماماً.. (يبتسم وهو يحرك رأسه يمنة ويسرة) لقد كنت أفكر بالفعل إلى أين يمكنني أن أذهب في مثل هذا الوقت من الليل.. ولكن.. آه.. ماذا أقول؟!.. "صمت بعض الوقت ثم أشاح بيده كأنما يطرد شيئاً أمامه" يجب أن اكف عن التفكير في هذه المسألة وإلا لبقيت أفكر هكذا حتى الصباح، دون جدوى..

أطفأ التلفاز الذي انتهى إرساله قبل فترة، توقف بالقرب من الحمام وهو ينظر إلى غرفة أبنه الذي رأى أن النور يشع من تحت الباب لقد أغضبه، وعليه أن يعتذر له بكلمة طيبة.. ربما كان متأثراً جداً.. تقدم في اتجاه الغرفة وكاد أن يطرق الباب، لكنه تراجع.. أمسك كرة الباب وفتحه بهدوء، ابتسم عندما رآه جالساً خلف مكتبه مكباً في مطالعة كتاب ما.. (ربما كان منشغلاً، لا بأس لن أخذ من وقته سوى القليل) ما أن خطأ بقدمه اليمنى حتى تجمد تماماً.. لم يكن ابنه قد شعر به خلفه.. كان يمتص نفساً عميقاً من سيجارة في يده ويطلق من فمه سحابة من دخان.. سحب نفسه إلى الخلف وأغلق الباب بهدوء.

عدن

1995/12/ 8

ثمن النجاح

في الحفلات الفصلية التي كانت تقيمها إدارة المدرسة، تقدم فيها بعض الفعاليات الفنية، وكان من أبرز هذه الفعاليات وأحبها إلى الجميع صوت فتاة صغيرة تقدم أغنية لأحد المطربين المشهورين، مما حدا بالإدارة أن لا يمر احتفال إلا وتشارك فيه هذه الفتاة التي تملك صوتاً عذباً وجذاباً يثير إعجاب الحاضرين فيصفقون لها بحماس ولفترة طويلة.. وكان أهم ما يميزها عيناها السوداوان والواسعتان، يشع منهما بريق ساحر برئ، وبشرتها الخمرية اللون وجمالها الهادئ.. كان صوتها يزداد تألقاً وعذوبة في كل احتفال جديد أكثر مما كان عليه في الحفل السابق.. وذات يوم وبينما كانت الفتاة تؤدي وصلتها الغنائية، كان يجلس بين الحاضرين أحد الموسيقيين الذي حضر تحت إلحاح ابنته التي تدرس في هذه المدرسة.. فوجئ الموسيقي وهو يسمع صوت تلك الفتاة وقد أثارت إعجابه كثيراً، حتى أنه قرر أن يتبناها فنياً، وبعد أيام جاء إلى إدارة المدرسة يستأذن مديرها وبين يديه أغنية ليقوم بتدريب الفتاة عليها.. كان اللحن الذي قدمه للفتاة، قد أجتهد به كثيراً وأهتم بانجازه اهتماماً بالغاً حيث جعله يتناسب وصوتها الجذاب.. وبعد تدريب أستمر قرابة أسبوع أو عشرة أيام، انطلق صوت الفتاة الصغيرة التي لم تتعد العاشرة من عمرها، ليخترق جدران المدرسة، ويتلقفه الناس

بإعجاب واضح وشغف كبير.. كانت تلك الأغنية بكلماتها المعبرة ولحنها الرائع وصوت الفتاة الذي استطاع أن يدخل قلوب مستمعيها بسهولة ويسر، قد فتح الباب أمامها على مصراعيه نحو طريق الشهرة والمجد، لتبدأ أولى خطواتها فيه.. لم يكن يتوقع أحد، حتى ذلك الموسيقي الذي أعطاها أغنيته، أن تكون البداية بهذا الإقبال والإعجاب الكبيرين، مما خلق تنافساً حامي الوطيس بين الملحنين الذين صب كل واحد منهم كل إبداعاته ليخلق لها لحناً متميزاً، ليصل اسمه إلى الناس عبر صوتها.. ولم تكن حمى التنافس قد سرت بين الملحنين فحسب، بل امتدت لتصيب الشعراء الذين هم الآخرون دخلوا حلبة المنافسة فأخذ كل منهم يجتهد بقدح زناد أفكاره ليثمر شعراً جميلاً أخاذاً، كما مس ذلك الاستباق متعهدي الحفلات ومسجلي شرائط وأقلام الصحافة الفنية وغيرهم بما فيهم الإذاعة والتلفزيون.. ولم تمر فترة وجيزة إلا وقد أصبحت الفتاة حديث الناس نساءاً ورجالاً وحتى الأطفال يرددون أغانيها أو يسمعوها عبر مسجلاتهم أو في سياراتهم.. كما نشطت الصحافة ولعبت دوراً كبيراً في تأجيج الصراع بين المهتمين ونشرها تلك الأخبار متابعة كل جديد لتوصيله إلى قرائها، كما لعبت الإذاعة والتلفزيون دوراً عظيماً في تعريفها على مستوى البلاد وخارجها وهكذا انهالت عليها الأعمال، فلم تكد تنتهي من أغنية وتسجلها، إلا لتدخل بروفة لأغنية جديدة.. ونظراً لازدحام الأعمال عليها لم تستطع المسكينة أن تواصل دراستها، فاضطرت أن تتفرغ لهذا النجاح الذي ملئ كيانها وعقلها وقلبها حباً عظيماً لم تستطع مقاومته..

كانت السنوات التي مرت وهي تنتقل من نجاح إلى أخر، رغم الإرهاق والتعب التي كانت تعانيه من كثرة البروفات إلا أنها ترجمته إلى كفاح مستمر وخاصة بعد أن أصبحت تشعر أن معجبيها ينتظرون جديدها بفارغ الصبر، وكلما أضافت أغنية جديدة إلى رصيدها، زاد بالمقابل عدد المعجبين بها أكثر.. لقد حققت شهرة لم تكن تحلم بها أو فكرت فيها يوماً كما جنت الكثير من الأموال، حتى أصبحت بعد عشر سنوات وقد بلغت العشرين من عمرها تلقب بلغة الصحافة "حبيبة الملايين" وتلك أطلقت عليها "النجمة المعجزة" وثالثة لقبتها بـ "صاحبة الصوت الذهبي" ورابعة جعلتها "الأميرة" وخامسة أصرت في كل كتاباتها قائلة "ملكة الطرب" وأسماء كثيرة لا تحصى بعدد المجلات والصحف التي تتناول الفن وأخبار أهل الفن.. لقد استطاعت فعلاً بصبرها ومثابرتها مستفيدة من هذه التجربة أن تعطي لكل أغنية ولحن الطبقة الصوتية المطلوبة، حتى اكتسحت السوق والشارع المحلي والخارجي اكتساحاً شاملاً..

كان والدها الذي حذرها بعد أول أغنية قدمتها أن تبتعد عن هذا الطريق، لأنه كان من المحافظين المتشددين، ولكن عندما بدأ نجمها يبزغ، انطلق بكل قوتها متحدية تهديد والدها الذي رأى أن ابنته سوف تجلب لهم العار فطردها من المنزل متبرئاً منها..

رفض والدها الملايين التي بعثت بها إليه بإصرار شديد رغم كل المحاولات، فلم يكن منها إن استبدلت بيتها الصغير الذي اشترته في

بداية مشوارها بفيلا واقتنت سيارة فخمة كما أحضرت معها كلما سافرت إلى الخارج بدعوة رسمية، بعض الأثاث الجميلة والسجاد الفاخر..

جاوزت الثلاثين من عمرها وصوتها يزداد سحراً وجمالاً أكثر.. أكثرت من سهراتها وحفلاتها حسب طلب عشاق فنها وصوتها والمعجبين بها، فلم يكن يمر أسبوع إلا وتغني فيه أغنيتين أو ثلاث أغان وكلها جديدة.. وخلال مشوارها الفني الذي يقارب ربع قرن لم تذكر أنها قدمت في حفلة ما أغنية من أغانيها القديمة، بل لم يحصل ذلك مطلقاً، حتى أصبح معها الأمر عسيراً أن تعرف بالدقة كم بلغ عدد أغانيها منذ أول أغنية حتى الآن.. وكانت تكتفي بالقول إذا ما سئلت من قبل صحفي أو لقاء تلفزيوني أو إذاعي عن عدد أغانيها.. بأنها لا تذكر كم عددها ولكن ربما تجاوز عددها ألفاً ونصف الألف تقريباً..

عندما تخطت الخامسة بعد الثلاثين، شعرت ولأول مرة منذ أن احترفت الغناء بما يشبه الحرقة الخفيفة في حنجرتها يظهر فجأة ويستمر ثواني ثم يختفي مرة أخرى.. ولكنها لم تعره اهتمامها وفي تلك المرحلة، وحتى تخفف عن نفسها الإرهاق والتعب فقد استطاعت أن تقنع جمهورها الكبير عبر الصحف والمجلات بأنها سوف تغني مجموعة من الأغنيات مرة واحدة في الأسبوع واختارت ذلك اليوم، ومنذ تلك اللحظة التي أصدرت إعلانها حتى أصبح الناس يترقبون ذلك اليوم بفارغ الصبر.. ومن لم يسعفه الحظ ويفوز بمقعد في دار العرض الذي يكتظ حتى آخره قبل ساعتين من بدء الحفل يكتفي بأن يذهب إلى

منزلـه ويجلس أمـام تلفازه أو مذياعـه الـذين ينقلان الحفل علـى الهواء مباشرة..

ذات صباح أحست بإرهاق شديد وحرقة في حنجرتها وهذه المرة كان قـد اشـتد ألـم الحرقـة الـذي كانـت تتجاهلـه خـلال الفتـرة الماضـية ممـا تضاعف أكثر يوماً بعد يوم.. وحدثت الكارثة.. كان يوماً سيئاً بالنسبة لها، بل أسوء يوم صادفته وذلك عندما صحت من نومها عند الظهر بعد أن قدمت حفلتها الأخيرة والتي استمرت حتى الساعات الأولى من فجر اليوم، شعرت بذلك الألم الغريب، أحست أن حنجرتها قد انطبقت على نفسها.. أمسكت سماعة الهاتف، تستدعي طبيبها الخاص، لكنها لـم تسـتطع أن تنطـق حرفـاً واحـداً بـل سـمعت حشـرجة مريـرة قاسـية، أعادت السماعة إلى مكانها وقد اعتراها خوف شديد ارتدت ملابسها علـى وجـه السـرعة وقصـدت طبيبهـا، وبعـد أن فحصـها فحصـاُ دقيقـاً، وأعاد الفحص ثانياً للتأكد، فجاءت النتيجة واحدة.. لقد تمزقت أوتار صوتها تماماً.. وليس هناك علاج لهذه الحالة..

كانت الصدمة عنيفة عليها جعلتها تعتكف في البيت لا تجيب على الهاتف الذي يظل يرن بإلحاح طيلة النهار وجزء من الليل، ولم تفتح البـاب كعادتهـا والجـرس كـالتليفون يظـل يـرن حتـى وقـت متـأخر مـن الليل.. بقيت على هذه الحالة عشرة أيام.. كان الشارع يموج كالبحر الهائج، تسمع صراخهم ولكنها لا تجيب.. بينما أخذت الصحافة تتسابق فيما بينها وكل واحدة منها تنشر خبراً تخمينياً وبعضها ظل يتساءل عن

سبب الاختفاء المفاجئ ويطلقون نداءات إلى الفنانة الكبيرة بأن ترد بكلمة لتشفي غليل هذه الجماهير القلقة..

جاءها الموسيقي الذي قدم لها أول أغنية وهو الوحيد الذي لا تستطيع إلا أن تفتح له الباب وهو من تنتظره.. عندما عرف حالتها وعدها بأن يعمل كل جهده وسيعود في اليوم التالي.. ولكنه جاء في اليوم التالي يحمل لها نفس ما قاله طبيبها وحتى العلاج في الخارج لا يجدي.. تألمت كثيراً حينها شعرت بالضياع.. نصحها بأن ترتاح لعل ذلك يأتي بنتيجة ما أو ربما تحدث معجزة..

عرف الناس ما حل بمطربتهم المحبوبة فجن جنونهم وخاصة أنهم عاشوا على صوتها خمسة وعشرين عاماً. وهكذا انقلبت تلك السعادة التي تربعت على عرشها كل تلك السنوات أصبحت مثل الجحيم.. هل سيقبلونها عشاق فنها دون صوتها؟! لقد أحبوا وعشقوا صوتها ولم يحبها أحد.. لقد أوصلها قمة المجد وتخلى عنها بهذه الصورة؟! شعرت أن صوتها كان بمثابة ثوب جميل تقابل به الناس.. لكنها الآن ترى نفسها وقد تجردت من ذلك الثوب وأصبحت عارية تماماً.. لحظات مؤلمة.. أحست أن سكيناً حاداً يتوغل نصله في أعماقها.. مرت تلك الليلة.. لم تشعر بالساعات وهي تلملم أثوابها لترحل، لقد هجرها النوم وهي تعيش هذه المأساة وتبحث عن حل لها.. أصبحت لا تساوي شيئاً فعلاً بدون صوتها.. كأي إنسان عادي.. تمنت لو كانت إنسانة عادية.. ولكن ماذا يفيدها ذلك.. فكرت كثيراً.. لكن كل الأبواب كانت مغلقة أمامها بأقفال من الحديد، وبعد جهد جهيد توصلت إلى حل، لكن

حاولت أن تجد غيره.. ولما فشلت ولم تجد حلاً أخر سواه.. بل كان هو الذي يفرض نفسه عليها فرضاً، وأخيرا استسلمت له بعد أن أقنعت نفسها بأنه إذا كان هذا هو ثمن النجاح، فليس أمامها إلا أن تدفعه شاءت أم أبت، تلك هي ضريبة الحياة، فلابد لكل شيء نهاية.. أحست بعدها براحة عميقة وقد انزاح عن وجهها ذلك الخوف والقلق وتلاشت تلك البرودة التي كانت متشبثة بأطرافها..

في صباح اليوم التالي، جاء الملحن ومعه بعضاً من زملائه ولفيف من الشخصيات الاجتماعية لزيارتها والاطمئنان عليها فربما كانت بحاجة إلى وجودهم حتى تشعر بأن أحداً لن ينساها فتعيد ثقتها بنفسها..

دخلوا الفيلا ثم اتجهوا إلى الصالة التي تستقبل فيها ضيوفها وزائريها وما أن دخلوا إلى الصالة وجدوا أنفسهم يقفون أمام مشهد غريب جمدهم تماماً وسمر أقدامهم على الأرض ولم يستطع أحد أن يفتح فمه بكلمة بل أكتفوا بتحريك رؤوسهم وعيونهم يميناً ويساراً بحركة واحدة..

كانت بكامل زينتها، تتأرجح إلى الأمام وإلى الخلف كرقاص الساعة وقد تدلى حبل سميك مربوط بمروحة السقف وينتهي طرفه الأخر بأنشوطة ملفوفة حول عنقها..

عدن

1995/11/15

obeikan.com

شـرطي المـرور

ركن الشرطي إلى مكانه وابتسامة كبيرة على وجهه وهو يدس الأوراق النقدية التي أخذها من سائق سيارة الأجرة في جيبه وأخذ يشيعها بنظراته الفرحة وهي تنطلق من أمامه.. زغرد الفرح في صدره "لو أن الأمر بدأ بهذه الوتيرة، أقسم أن وردیتي لن تنتهي إلا وقد جمعت مبلغاً محترماً.." فرك يديه فرحاً، فلم تلبث بضعة دقائق إلا وتعلقت عيناه على سيارة من تلك التي لا يمتلكها سوى الميسورين.. كانت تسير بسرعة منخفضة.. فقرر أن يجرب حظه معها فربما أنعم عليه صاحبها بمبلغ جيد.. رفع يده مشيراً لسائقها بالتوقف جانباً.. كان السائق صغيراً في سنه ربما لم يتجاوز الثامنة عشر ربيعاً.. وهنا هتف شيء ما في ذهن الشرطي..

– ما الأمر يا سيدي؟!

رسم الشرطي هالة مصطنعة على وجهه ليبدو أكثر جدية:

– ألم تعرف بعد؟! لقد تجاوزت السرعة المطلوبة وأنت تقترب من المنعطف.. وهذا مخالف للقانون..

أبتسم الشاب بود وبمسحة من دهشة..

– المعذرة يا سيدي الشرطي، أنني اعرف السرعة المطلوبة ولكنني لم أتجاوز الثلاثين كيلو..

قاطعه الشرطي بحدة مصطنعة:

– لا تجادل يا هذا وإلا سجلت عليك مخالفة أخرى.. أعطني رخصة القيادة وملكية السيارة..

امتثل السائق صامتاً لأمر الشرطي فسلمه ما طلب.. تفحص الشرطي الرخصة جيداً ثم الملكية وهنا هللت أساريره..

– أنك لست مالكاً لهذه السيارة؟!

قال الشاب وقد بدت علامات الضيق على وجهه:

– أنها ملك والدي.. هل نظرت إلى اسم الرخصة؟!..

قاطعه الشرطي بنفس الطريقة السابقة..

– ليس هذا من اختصاصي.. سأحرر لك مخالفتين وسأحتجز الملكية وهناك يمكنك أن تشرح لهم الأمر..

أخرج الشرطي ثمة ورق من جيب قميصه وقلماً وفردها على غطاء مقدمة السيارة ليسجل المخالفتين.. خرج الشاب من السيارة وقد شعر بأن ليس ثمة أمل في محاولة أثناء الشرطي عن تسجيل المخالفة أخرج من جيبه خمس ورقات نقدية من فئة المائة كورها في يده ورسم ابتسامة لا يدري كيف يريدها أن تكون.

– المعذرة يا سيدي الشرطي.. أعتقد بأن الأمر لا يستحق ذلك.. هل يمكننا أن نتفاهم ودياً؟!

دس الشاب الأوراق النقدية في يد الشرطي الذي تظاهر برفض المساومة ولكنه سرعان ما قبل وقال موبخاً:

– حسناً كنت إنما قصدت من معاقبتك أن أعلمك حتى لا تقع في الخطأ مستقبلاً، هل فهمت؟! أذهب الآن، ولكن عليك أن تعلم جيداً أنك إذا وقعت بيدي ثانياً لن أتسامح معك مطلقاً.. خذ..

شكر الشاب الشرطي وهو يعِده بعدم تكرار هذا مستقبلاً.

استقل سيارته وانطلق بها ملوحاً بيده للشرطي الذي كان غارقاً ببركة من الفرح والسعادة، ويده في جيبه.. كان ذلك الشيء يزغرد أكثر في صدره.. "عليك بمثل هذه السيارات، فأصحابها يملكون الكثير".

مرت بضعة دقائق أخرى وقد امتلأ صدره ثقة أكبر بقدرته على اختلاق المخالفات وابتزاز السائقين باسم القانون وبذلته التي تحميه على ذلك.. كان يرتكن طرف شارع فرعي لخروج السيارات منه إلى الشارع العام.. متكئاً بظهره على عمود حديدي ثبتت بأعلاه لوحة دائرية تحمل إشارة "ممنوع الدخول" أخرج علبة سجائره أشعل واحدة وأخذ بنفث دخانه بتلذذ وعيناه تتابعان السيارات المارة أمامه.. وفجأة مرقت سيارة، تشبه تلك التي أمسك بها، من أمامه إلى الطريق الفرعي، كاد قلبه ينخلع من مكانه من شدة الفرحة وهو يرفع يده لسائقها بالتوقف.. توقفت السيارة على بعد أمتار قليلة فسار إليها وكان يشعر أن كل شيء في أعماقه يرقص ويزغرد.. كانت حفلة صاخبة بكل ما تعنيه الكلمة.. رمى سيجارته على الأرض ليفرك يديه مقتربا من السائق قائلاً بصوت جاد لا مزاح ولا هوادة فيه:

– أين رخصة قيادتك؟!

قال له السائق بصوت جاف:

– لا أحملها معي عادة ولكنني أبقيها في المنزل..

لعلع ذلك الشيء في أعماقه بقوة وكأنما كان يحدث نفسه "وهذه مخالفة جسيمة أخرى" شجعه ذلك على التمادي بجديته أكثر ربما كانت أقرب إلى الوقاحة منها إلى السخرية والصلف..

– شيء جميل ورائع.. هل تعتقد أن رخص القيادة تصرف من أجل أن تحفظ في المنازل؟! حسناً لعلك أيضاً لا تحمل الملكية أو البطاقة الشخصية؟! إن موقفك يزداد سوءاً يا هذا..

لوى السائق فمه وخرج صوته المعدني مخلوطاً بنبرة غريبة:

– هل أوقفتني لتسألني عن هذه الأشياء السخيفة؟!

طقطق الفرح العارم صدره حتى كاد يتفجر من مسامات وجهه، فلم يكن السائق مخالفاً في دخوله طريقاً يمنع الدخول فحسب، بل وليس لديه أية وثيقة وتلك مخالفة مزدوجة، كما أنه عنود وهذا ما سيجعل ابتزازه بمبلغ لا يتخيل كم يبلغ حجمه –ولكنه كبير بكل المقاييس– أمرا يسيرا..

– إنك لم تلتزم بقواعد المرور فدخلت طريقاً يمنع الدخول فيه. وهذه وحدها مخالفة جسيمة، ولأنك لا تحمل رخصة القيادة معك ولا وثيقة تثبت هويتك أو امتلاكك هذه السيارة ولكل واحدة منها مخالفة لا تقل عن المخالفة الأولى، ولذا عليّ أن أحرر لك أربع مخالفات وهذا ما دفعني لأن أوقفك وليست أسئلة سخيفة وأما المخالفة الخامسة فهي سوء السلوك مع رجل المرور. ويؤسفني أن أطلب منك مفتاح سيارتك

لأنني لن أسمح لك بقيادتها، وبإمكانك أن تذهب غداً صباحاً إلى مقر القيادة لتستلمها من هناك..

فتح السائق باب السيارة وترجل عنها وقد استشاط غضباً وعلى خصره يتدلى مسدس بجرابه، أقترب من الشرطي قائلاً له بتهكم:

– لا يهمني إن كنت تحفظ واجباتك الحمقاء كما يجب ولكنني أعتقد أنك بحاجة إلى بعض الدروس الأخرى..

يخرج من جيب قميصه بطاقة صغيرة ويقربها بغرور من وجه الشرطي الذي ما أن يلقي عليها نظره حتى تغيرت سحنة وجهه بسرعة البرق وقد لوى فمه في كل الاتجاهات ليصنع ابتسامة بلهاء ورعدة خوف ورعب دبت في جسده كله وجاءت كلماته معجونة وممطوطة..

– أ.. أ.. أرجو المعذرة سيدي العقيد.. يمكنك أن، أن تذهب حيث شئت..

أدخل العقيد بطاقته في جيبه بزهو وابتسامة استخفاف مزرية على شفتيه..

– سأذهب بالتأكيد ولكن ليس قبل أن تدفع ثمن هذا السخف أيها الأحمق..

صفع الشرطي على وجهه بقوة، وصعد سيارته فنظره بعيني تقدح شرراً.. ثم بصق على وجهه باحتقار كبير.. كان الشرطي المسكين قد انكمش داخل بدلته، شعر بضآلته وضعفه، رفع يده اليسرى يتحسس تلك الصفعة التي ألهبت خده وهو يحملق بالسيارة التي انطلقت وعلى

صفحة وجهه ارتسم بمرارة رعب قاتل تعكسه بوضوح تلك البصقة التي التصقت به والتي لم يجرؤ حتى على مسحها..

عدن

1996/1/6

obeikan.com

شظـايا وأشـلاء

استمر الصبية فيما بينهم – على طول الزقاق الرملي الضيق – يمارسون لهوهم المعتاد بحماس لا يوصف، مثيرين بذلك ضجيجاً هائلاً بأصواتهم الحادة والعالية.. كان الزقاق لا يتسع إلا لمرور سيارة صغيرة واحدة فقط، بينما تجثم على جانبيه أبنية قديمة مهترئة وهي تتقابل بصفين وكأنها تتزاحم فيما بينها بشكل يثير الدهشة، بعضها بدور والآخر بدورين..

اقتربت الساعة من الثالثة بعد الظهر في يوم حار من أيام شهر يونيو القائظ وقرص الشمس الملتهب لازال يرسل شواظ حممه المحرقة على الأرض وهو الوقت الذي عادة ما يخلد فيه الناس للراحة والاستسلام لقيلولة النهار.. إلا أنه عند هؤلاء الصبية يوم عادي كأي يوم، إذ أنهم لا يعرفون القيلولة. ولا يأبهون لحرارة الشمس التي تلهب رؤوسهم وأجسادهم العارية.. ولا يعيرون اهتماماً للرمل الحار وأقدامهم العارية تغوص فيه، ولا يلتفتون إلى ذلك العرق الذي يتصبب من أجسادهم السمراء التي لوحتها الشمس، بل أنه ربما كان ذلك ما يزيدهم حماساً ويثير تنافسهم، فيغرقون أكثر في لهوهم وصخبهم ورغم عددهم الكبير إلا أنهم استطاعوا أن يفسحوا مساحة مناسبة لكل مجموعة من طول الزقاق الذي لا يزيد عن العشرين متراً مما جعل كل مجموعة

تقسم نفسها إلى فريقين أو أكثر، حسب ظروف وقواعد اللعبة التي تمارسها كل مجموعة.. فهنا مجموعة الكرة الشرابية تلعب بثلاث فرق. والمجموعة الثانية خاصة بالصبيات تلعب كرة اليد في فرقتين من عشر لاعبات لكل فريق، والمجموعة الأخيرة لكرة القدم بثلاث فرق حيث يلعب فريقان – بالنسبة للمجموعتين الأولى والثالثة – وينتظر الفريق الثالث حتى يلعب بديلاً عن الفريق الخاسر، وكان الفريق المنتظر يجلس لاعبوه متكئين على جدران الأبنية خلفهم يتابعون حركة الكرة بحماس شديد وربما انقسموا فيما بينهم من يؤيد هذا الفريق ومن يؤازر الفريق الآخر، فتجدهم يصرخون بشدة أو يصفقون بحرارة حتى تحمر أكفهم تماماً والبعض منهم يطلق صفيراً حاداً، إذا ما استطاع أحد الفريقين أن يحرز نصراً ويكسب نقطة ثمينة، كان التنافس على أشده، وكلما اشتد التنافس زاد حماس اللاعبين، وكلما زاد الحماس تنطلق الصيحات العالية أكثر فإنه بالقدر نفسه يثير انزعاج الساكنين، فيطل بين لحظة وأخرى احد الناس من نافذة منزله صارخاً بسخط وغضب شديدين..

– أيها الشياطين، أنكم تحرقون أعصابنا.. العبوا بهدوء أو لتذهبوا إلى الجحيم.. أي وغد رمى بكم في هذا المكان اللعين؟!

أو يقول أخر بصوت مجلجل وخلجات وجهه تهتز طبقاً لانفعالاته..

يا أبناء الأبالسة، ليعلن الله البطن التي حملتكم.. لم أستطع النوم أيها الملاعين.. هيا أذهبوا بعيداً من هنا.. أذهبوا إلى مكان آخر والعبوا كيفما شئتم..

لم يكن هناك من يستطيع أن يوقفهم من الجري خلف الكرة، الذي يزيد من إشعال فتيل ضجيجهم، سوى سيارة تخترق ذلك الزقاق وهي تسير ببطء شديد، فأن هدا صخبهم لثواني، فأن نفيرها الحاد يزعق بتواصل عنيد يمزق الأعصاب بل ويدمرها.. رغم أن السيارات قليلاً ما تسلك هذا الزقاق إلا أنه يثير سخط الأطفال جميعاً..

صرخ أحد الصبية لزميله:

– إلى هنا.. إلى هنا.. انظر إليّ أيها الأحمق.. أرم لي بالكرة..

يرمي له زميله بالكرة وبسرعة يقوم هذا بقذفها بقوة لتصطدم بأحد لاعبي الفريق الخصم.. وعندها ينفجر صراخهم الحاد يحمل في طياته فرحة رائعة لهذه النتيجة التي أحرزها زميلهم لصالحهم.. بينما ترتفع أصوات الفريق الأخر مدمدماً متذمراً ساخطاً ذلك الحظ العاثر الذي رمى لهم بمثل هذا اللاعب الثقيل الذي كان هدفاً مكشوفاً للخصم، وسبباً لنقطة ثمينة أضاعوها، مما يعني أنهم على وشك إن يخسروا المباراة..

ارتفع صوت رفيع ورقيق لصبية تنادي زميلتها التي تمسك بالكرة وهي تقفز بطريقة تثير الضحك:

– ارم الكرة، المكان خال..

قالت زميلتها وهي تراقب أمامها باهتمام وحماس:

– تقدمي إلى الخلف أكثر حتى استطيع أن أناولك.. كلا.. ليس من هنا.. من هناك.. أسرعي.. بسرعة قبل أن يلحق بك أحد.. تتحرك تلك بسرعة إلى حيث أشارت لها زميلتها.. وحينها تلقفت الكرة وبنفس

سرعتها استدارت لتواجه مرمى الخصم وتقذف بالكرة بحركة رشيقة نحو الهدف لتنطلق من تحت قدمي حارسة المرمى وتحرز هدفاً جميلاً.. أثار انفعالهن وفرحتهن فأطلقن صراخهن المنغم وأخذت زميلاتها تحتضنها وتقبلها واحدة بعد أخرى..

كانت الصبيات مثل الصبية يتصببن عرقاً، حتى التصقت ملابسهن على أجسادهن الضئيلة والضامرة. رؤوسهن الصغيرة والعارية، شعرهن أما بضفيرة أو بضفيرتين والبعض بشعر قصير أو طويل مجعد تلتف خصلاته حول بعضه كحبال صغيرة ولكنه ليس ممدوداً إلى الأسفل بل كأسلاك الكهرباء الخفيفة التي تلتف حول بعضها بطريقة حلزونية.. كانت ضفائرهن أو خصلاتهن تتأرجح في كل الاتجاهات عندما يتحركن، وطبقة كبيرة من الغبار يغطي جزءاً كبيراً من رؤوسهن ووجوههن حتى ملابسهن..

ارتفع الحماس والصراخ بين لاعبي كرة القدم، والكرة في حركة دائمة لا يقر لها قرار كما هي حركة اللاعبين الذي يجرون بنشاط وهمة عاليين خلف الكرة.. صاح احد اللاعبين وقد توقف عن الجري شاتماً زميله:

– قلت لك حول الكرة إليّ، لماذا لم تسمع؟! لقد أضعنا هدفاً محققاً بسبب، حماقتك أيها الحيوان..

صرخ الأخر بصوت محبوس مسلول..

– وكيف تريدني أن أسمعك وسط هذا الضجيج؟! إنني لم أر في حياتي قرداً مثلك يقف هكذا دون أن يبدي جهداً وكأنه واثق من أن

الشياطين ستأتي إليه مقيدة لتأتمر بأمره.. لماذا لم تجر وتأخذها بنفسك؟! كان الأولى بك أن تستخدم قدميك ربما كان ذلك أجدى من لسانك القذر.. (يعلو صراخ عال وتصفيق حار وصفير حاد.. يلتفت إلى زميله غاضباً) أرأيت؟! لقد أحرزوا هدفاً أخر أيها الوغد اللعين، وكل هذا بسببك..

قال له زميله بنفس طريقته السابقة:

– ولماذا لا تكون أنت السبب، لتتخاطفك شياطين البر، وما دخلي أنا؟! لست دفاعاً أو حارس مرمى حتى أتحمل مسؤوليتك أيها العجل النتن..

كان الحماس على أشده والعرق يتصبب من أجسادهم المحروقة التي لا يسترها سوى فانيلات قد فقدت لونها الأصلي وبنطلونات قصيرة قد ذهبت ألوانها أدراج الرياح فأصبحت مجرد خرق بالية ممزقة.. عندما كانوا يجرون خلف الكرة بحماسهم المجنون يثيرون عاصفة من الغبار حولهم فتلتصق على أجسادهم المثقلة بالعرق لتظهر بوضوح من خلاله خطوط العرق التي تنزلق إلى أسفل أجسادهم..

كانت تسمع بين الحين والآخر دوي انفجار هائل في مكان ما.. ولكن رغم تلك الانفجارات والتي تبدو بعضها قريباً منهم، لم تخمد حماسهم أو تسكن حركاتهم وتسكت صراخهم، بل كأنهم وهم منغمسون في لعبهم لا يبالون بها أو كأنها لا تعنيهم في شيء..

أسراب الغربان تثير ضجة بأصواتها الناعقة بغضب كالح وهي تخبط أجنحتها في الهواء بقوة كلما دوى انفجار ما.. فهي ما فتأت

تطير أسراباً لتحط على السلك الكهربائي السميك، والذي يربط أعمدة النور المتفرقة في أرجاء المنطق، لتطير مرة أخرى وتحط على سقف أحد البيوت أو أطراف السور المهدم الذي يبدو جزء منه في طرف الزقاق الأخر..

تطل امرأة برأسها تنادي أبنها أو أبنتها بخوف أثر كل انفجار قريب طالبة منه أو منها ترك اللعب والعودة إلى البيت.. وربما طل رجل أخر برأسه وهو ينادي أبنه أن يعود إلى البيت أو فتاة تنادي أحد أخوتها.. ولكن الصبية رغم أنهم يعدون أبائهم وأمهاتهم أو أخواتهم بأنهم سيأتون حالاً، إلا أنهم سرعان ما ينغمسون في حماسهم الأسطوري ويتناسون النداء..

صرخ صبي بصوت حاد وهو جاثم على ركبتيه ممسكاً رأس زميل له ينزف دماً أثر سقوطه على الأرض وارتطامه بطرف حجر مدبب مغروس أكثر من نصفه في الأرض..

– توقفوا.. تعالوا وساعدوني.. أنه ينزف دماً من رأسه..

هدأ الصراخ والضجيج وتوقفوا عن ملاحقة الكرة وقد اشرأبت أعناقهم ينظرون في اتجاه الصوت.. ركض صبي ثم تبعه أخر فثالث ثم رابع وهكذا اندفعوا جميعاً إلى حيث كان الصبي يصرخ.. أخذوا يتدافعون بأجسادهم المثقلة بالعرق المخلوط بالتراب كل منهم يريد أن يرى ذلك المصاب ربما بدافع من حب الاستطلاع أو الفضول..

صرخت صبية بخوف وهي تحثهم:

– احملوه بسرعة إلى أهله ليسعفوه..

تداخلت أصواتهم أثر ذلك وارتفعت بغير ترتيب..

– أوقفوا النزيف أولاً..

– سد الجرح بيدك..

– إنه ينزف بشدة..

– لماذا تقفون هكذا؟!

– أحملوه إلى أهله بدلاً من البقاء هكذا كالحمقى تنظرون إليه..

صرخ الصبي الذي كان ممسكاً برأس المصاب..

– هيا أذن، فليساعدني بعضكم، أنا سأمسك رأسه، ويجب أن يحمل اثنان يديه كل منهما يحمل يداً، واثنان يمسكانه من جانبيه واثنان يحملان قدميه كل واحد يحمل قدماً.. هيا..

يتدافعون بحماس وبراءتهم تسبق خطواتهم، كل منهم يريد أن يكون ممسكاً بجزء من جسد المصاب.. ثم يتدافعون بأيديهم ويعلو الصراخ ثم تتلو ذلك كلمات السباب والشتائم.. هذا يشتم من كان بجانبه يزاحمه على الإمساك بيد المصاب وذلك يمسك بيد أخر ويبعدها عن قدم الصبي وأخر يدفع بكلتا يديه صبياً أخراً كي يخلي له المكان، وفجأة دخل الجميع في عراك شديد، أصواتهم تختلط ببعضها كما يمتزج سبابهم بشتائمهم بصراخهم وكل واحد أمسك بخناق أخر، حتى الصبيات دخلن المعترك، فأخذت كل واحدة تمسك بخناق الأخرى.. تكوموا في كتلة واحدة، كلمات متداخلة غاضبة، صراخ، شتائم من كل لون، أصوات متألمة، كلها مختلطة ببعضها البعض والغبار يتطاير من تحت أرجلهم..

صوت صفير غريب شق السماء دوى أثره انفجار رهيب صم الأذان، واهتزت له البيوت، برقت منه ومضة شيطانية خطفت ذلك الصخب والضجيج لتخلف كتلة كثيفة من التراب والدخان الأسود..

فتحت أبواب النوافذ لتطل منها رؤوس لرجال ونساء ينظرون إلى تلك البقعة الداكنة وقد انخلعت قلوبهم من مكانها، وانحبست أصواتهم في حناجرهم وعيونهم جاحظة تيبست في محاجرها، تتجه كلها إلى مكان واحد..

تطايرت شظايا تلك القذيفة المجنونة في كل الاتجاهات ألحقتها أضرار بالغة.. ارتفعت تلك الكتلة إلى السماء لتكشف ثمة أجساد مشوهة مرمية على الأرض وقبسة من نار تزحف بإصرار لتلتهم ما تبق عليها من ملابس.. حفرة عميقة توسطت ذلك الزقاق.. بينما تطايرت أجساد متفحمة سوداء لتلتصق بجدران البيوت المحيطة خيوط رفيعة حمراء ممزوجة بتراب الطريق وسواد البارود تنحدر منها لترسم لنفسها خيوطاً تنزلق ببطء إلى أسفل الجدران.

1996/1/8

المجنـــون

تجهم وجهه مصبغاً بألم لا يقاس وأردف قائلاً، بعد أن أطلق زفرة مريرة أنتزعها من أعماق قلبه:

– لقد طردني شر طردة.. كأنني جئت إليه طالباً منه حسنة لوجه الله..

لأنك الرجل البدين الأصلع الرأس كلماته وهو يجلس أمامه على الطاولة في الكرسي المقابل، مرتديا ملابس أنيقة وعلى عينيه نظارة طبية سميكة، وفي جيب قميصه تبرز مجموعة أقلام مختلفة الألوان وهو يمضغ قطعة من الخبز..

– وما الذي دفعك لأن تذهب إليه؟!

أجابه الرجل النحيف ذو الشعر الأشعث والذي كان يرتدي بنطلوناً داكناً ممزقاً وقميصاً مهترئاً تندسان قدماه في صندلين من البلاستيك يختلف كل منهما عن لون وشكل الأخر..

– لو لم أكن بحاجة إليها لما ذهب إليه..

قاطعه البدين وقد أنهى طعامه وشرب ما تبقى من الشاي الأسود.

– قلت انك قد ذهبت إليه مراراً ولم يعرك اهتماماً، أنه كما يبدو لي يحاول أن يتخلص منك بأية طريقة..

أجاب الرجل النحيف والذي يبدو من هيئته أنه قد تجاوز الستين من عمره بنفس مرارته:

– ولكنني لم أطلب منه شيئاً غير حقي، مرت ثلاث سنوات منذ أن جاء يستلف مني ثلاثة آلاف ريال!!

قال الرجل البدين وهو يشيح بيده أمام وجهه ليطرد ذبابة حطت على وجهه متهيئاً للنهوض:

– أشرب الشاي قبل أن يبرد، المعذرة، على أن أذهب الآن لقد حان وقت العمل.

أمسك الرجل النحيف بيده يستبقيه لبعض الوقت، وقال بصوت به شيء من الاحتجاج:

– أنك تعرف ذلك جيداً أيها الرجل الطيب.. منذ أن كنت مديراً عاماً، لم يكن قد تعين بعد بأية وظيفة، كان عاطلاً عن العمل، ليس لديه حتى "شهادة الثانوية العامة" رغم أنني حاولت أن أساعده ولم استطع.. ولكنه ما أن دخل ذلك "التنظيم" حتى استطاع أن ينتقل من مركز إلى أخر بعد أن حصل على وظيفة في أحد الفروع الكبيرة بشكل سريع ومريب، وهاهو الآن يدير ذلك الفرع بكامله ويستلم راتباً ضعف ما كنت استلمه قبل أن يقيلونني قسراً لسبب لا أدريه.. عندما كنت أذهب إلى مكتبه علني أجد فرصة لا تحدث إليه، يرسل إليّ من يقول أنه مشغول.. ولذلك قررت أن أنتظره بجانب سيارته الجديدة حتى أنهى عمله، وعندما رآني، وقبل أن أفتح فمي، صرخ بوجهي شامتاً.. (ترك

يد الرجل البدين وهو يحرك رأسه سلباً كانت دمعة حارة قد فرت من عينه لتتلوى بين تجاعيد وجهه الذي رسمها الزمن بقسوة، وقد أنكس رأسه ملقياً ببصره أمامه) كنت أتصور أنه سيقول لي شيئاً طيباً، أن يعطيني جزءاً من المبلغ، أو يعتذر مثلاً كنت عذرته، لم يكن يجول أو يخطر ببالي قط أراه يصرخ بوجهي شامتاً ويطردني من أمامه بتلك الطريقة المذلة.. (صمت برهة وقد امتلأت عيناه بالدموع) لو لم أكن بحاجة للنقود!! ولو لم تكن زوجتي تلح دوماً أن أسترد ذلك المبلغ، لما ذهبت إليه بعد اليوم.. لكن أولادي يتضورون جوعاً!! فماذا أفعل؟! فقدت كل شيء.. أشعر بأن شيئاً يتفجر في أعماقي كل يوم.. لست أدري ماذا أفعل؟!!

كان الرجل البدين قد أنسل خارجاً في الوقت الذي ترك يده دون أن يشعر به لكنه ظل مستمراً بحديثه دون أن يرفع بصره عن الطاولة..

– عندما كنت مديراً ذات يوم، كان كثير من الناس تقصدني لأي شيء. أقسم بالله وبكتابه وبرسوله الكريم، أنني لم أكن أتأخر عن تقديم خدماتي للآخرين، لم يحدث أن رفضت أحداً أو صرخت بوجه أحد، بل كنت أحاول إلا أترك من جاء إليّ يذهب خائباً خالي الوفاض.. البعض يأتي لأنجز لهم عملاً في أطار اختصاص مرفقي، والبعض الأخر يأتي كي أتوسط له لدى مدير مرفق أخر والبعض الثالث يأتي طلباً للمال.. ويشهد الله أنني ما مددت يدي إلا لجيبي أعطيهم طلبهم، ولكنهم كانوا يردون ما استلفوه متى ما وجدوا الفرصة لذلك.. ولكن هذا الذي وثقت به.. أتعرف أيها الرجل الطيب، كنت أراه مثل ابني تماماً،

أعطيته ذلك المبلغ وقال بأنه سيرده إذا قبض أول راتب له من تلك الوظيفة التي وعدوه بها بعد شهرين لم أكن عجلاً أو بحاجة إلى ذلك المبلغ قلت له لا بأس، أرجعه وقت تشاء.. وبعد بضعة أشهر صُدر أمراً أدارياً بإقالتي.. هل تصدق؟! منذ ما يقرب من ثلاثة أعوام لم أستلم مستحقات نهاية الخدمة.. رغم متابعاتي المستمرة لم أجد سوى أعذاراً واهية، أحياناً أن اسمي لم يكن في الكشف وأحياناً أخرى يقولون إن اسمي لم يرفعه المرفق الذي كنت أديره.. وثالثة يقولون أن المعاش لم يصل بعد.. لست أدري ماذا فعلت حتى يعذبوني هكذا؟! لم أقم بذنب أو جريمة أستحق عليها تلك الحرب الشنعاء.. قدمت من أجل عملي أجمل سنوات عمري.. خمس وأربعون عاماً.. عملت منذ أن كان عمري ستة عشر عاماً ويرمي بي هكذا رمي الكلاب الضآلة، دون أدنى اعتبار لشيء..

غامت عيناه وهو يتلفت حوله، ولما لم يجد ذلك الرجل البدين، أمسك بكوب الشاي بين يديه، ينظر إليه بعينيه المليئتين دموعاً حارة تتدحرج على خديه اللذين يمتلئان بالتجاعيد الواضحة.. كان صوته قد ازدادت نبرته ألماً وعذاباً قاسياً وحسرة عميقة تمزق نياط القلب وقد شرع يحدث نفسه..

1996/1/15

أميـرة الابتسامات

شـيء مـا، جذبني إليهـا.. شـيء خفي، لـم أكن حينهـا استطعت أن أميزه.. لكن ذلك لا يمنعني من أن اعترف أنـه كان سبباً مباشراً جعلني أغرق فـي حبهـا حتـى العنـق.. كانـت جميلـة؟! ربمـا بـدت لـي كـذلك، ولكنها ليست بذلك الجمال الذي يصنع ملامحه الأديب أو الشاعر أو المصـور ليصـبغه علـى بطلتـه بكـل الخصـال التـي تلهـب مشـاعر وأحاسيس المراهقين وغير المراهقين وتستنفر خيالهم دفعة واحدة.. بل ربما قد تبدو للنـاظر إليهـا فتـاة عاديـة الملامـح، قمحيـة البشـرة، تملك عينين سوداوين واسعتين وشعراً فحمياً مسترسلاً خلفها، ولعل أهم ما تتميز بـه هو ابتسامتها.. وليست الابتسامة بحد ذاتها فحسب، بل وما تكشف عنها، سنان كبيران، يفصل بينها خطاً ملحوظاً من الفراغ.. هو الذي يعطـي ابتسامتها بريقاً ناعماً من الجمال يزين وجهها كلـه.. كان ذلك الشـيء هو السر الذي عرفته فيما بعد..

قلت لها ذات يوم:

– لا أدري لماذا عندما أراك تبتسمين، تبدين في نظري أجمل امرأة رأيتها في حياتي؟!

ابتسمت حينها خجلاً وهتفت معترضة بصوت رقيق كالهمس:

– ومن قال لك أنني أبدو كذلك؟! أنني لست كما تظن حتى أوافقك على ما ذهبت إليه.. أنت تجاملني، بل أراك تبالغ فحسب..

أجبتها مؤكداً وكأنني أحاول أن أجد ما أبرهن عليه من دلائل..

– أقسم لك أنني أقول الحقيقة، لست بحاجة إلى مجاملتك، ولماذا أبالغ؟! بل أنت لا تستطيعين.. لا يستطيع أي إنسان أن يحكم على نفسه أو يرى حقيقته بأي حال، حتى ولو بقي لساعات طوال أمام المرآة ينظر إلى نفسه.. ولكن يستطيع الآخرون ذلك.. لأنهم يرون شيئاً ما يتميز به، قد لا يراه هو نفسه، أو ربما رآه ولكنه لم يعره اهتماماً.. أليس هذا صحيحاً؟! وهذا ما دفع بعضهم يقول مثلاً: "لا تتحدث عن نفسك، بل دع الآخرين يتحدثون عنك".

أحمر وجهها وهي تطلق صوتها الخافت يحفه طيف غضب:

– أنني في غنى عن شهادة الآخرين، ولم أطلب من أحد أن يتحدث عني، أرى انك تتمادى أكثر.. لست اهتم لحكمك مهما كانت ذريعته، فأحتفظ به لنفسك..

كنت اعرف أنها عندما تغضب ويحمر وجهها خجلاً، فذلك يعني أن سنيها وتلك الفتحة بينهما التي تزين ابتسامتها بذلك الجمال الآسر ستختفي تحت رداء شفتيها الرقيقتين.. فأسرع معتذراً بتودد:

– أرجوك.. أتوسل إليك.. لك أن تغضبي مني كيفما تشائين ولكن لا تطبقي شفتيك.. دعي ابتسامتك كما هي.. أحب أن أرى سنيك وتلك الفتحة التي تفصلهما.. لأنني أرى بهما ابتسامتك تصطبغ بإشراقة

جمال صباحات وجهك الندية.. أرجوك.. ذلك أغلى ما أطلبه منك، أتوسل إليك، لا تحرميني منه..

وأمام ذلك، لم تستطع إلا أن تضع يدها على فمها وقد تلاشى الغضب عن وجهها ثم تفر من أمامي.. وكم كنت أسعد لذلك.. وتمر فترة من الزمن وبينما نكون كعادتنا نتجاذب أطراف الحديث.. ابتسمت.. حينها وجدتها فرصة سانحة لأن أردد لها بوله وإعجاب ما قلته:

– هل تعرفين يا عزيزتي، أنني أعيش قصة غرام، تفوق الخيال؟!

تقطب حاجبيها وتسأل بدهشة وربما باستنكار:

– ومن تلك التي أغرمت بها يا زير النساء؟!

ابتسمت لها، ربما من شدة السعادة التي غمرتني وأنا أشعر بغيرتها اللذيذة:

– أغرمت بسنيك يا نصف عمري.. سنيك وتلك الفتحة بينهما.. آه لو كنتِ تعلمين أنهما يعطيان ابتسامتك جمالاً من نوع خاص ينشر ضلاله الوارفة على صفحة وجهك كله؟!

ابتسمت رغماً عنها وهي تقول مازحة:

– ألا زلت تصر على رأيك؟! لقد بدأت أكره سني وابتسامتي.. يقولون في الأمثال: "أن القرد بعين أمه غزال"..

قلت لها بصوت ينضح بثقة كبيرة:

– كلا.. صدقيني.. أنني لا امزح وأنت تعرفين ذلك جيداً.. قد يبدو ذلك صحيحاً بالنسبة للقرد.. ولكن ابتسامتك وسنيك وتلك الفتحة

بينهما، ليسوا كذلك.. بل أستطيع أن أؤكد لك شيئاً مهماً.. لقد عرفت الكثير من النساء الجميلات، فإن كان البعض منهن جميلة العينين، فهي لا تملك ابتسامة بجمال عينيها.. وإن امتلك البعض الآخر جمال الابتسامة، يفتقر إلى جمال العينين.. وإن بلغ البعض الثالث بوجه لا يضاهَى، فإن الابتسامة أو العينان لا يتناسق مع جمال الوجه.. فهن جميعاً وإن حظين بذلك القدر من الجمال، إلا أنهن لسن بذلك السحر الذي تتلفع به ابتسامتك الآسرة والتي عن جدارة واستحقاق يمكنني أن أطلق عليها أميرة الابتسامات، خاصة وأن سنيك بفتحتهما لهما أكبر الأثر في ذلك.. لا تندهشي، ولا تستغربي إن قلت لك ذلك أو أقول لك إنني أحببتك من خلال سنيك وتلك الفتحة بينهما..

زغردت بضحكة أطلقتها، تاركة الفرشاة لسنيها وتلك الفتحة بينهما لترسم بإتقان شديد لا يقارن لوحة آية من الجمال تبرز بوضوح على صفحة وجهها وكأنما بريق أخاذ أخذ يتوغل في أعماق نفسي، أشعر وكأنه يدغدغ كل جزء في جسدي بتلك اللمسات الحانية التي أثارت حبي لها حد الآسر..

غابت فترة طويلة على غير عادتها وبغير سابق إنذار.. أستبد بي القلق والخوف والهلع.. كنت قد أحببتها حد الجنون، لم أتصور كيف سيكون شكل ذلك اليوم الذي يمر دون أن أراها.. سألت عنها، وعرفت أنها تعاني من وعكة صحية شديدة ألزمتها الفراش..

مر أسبوع ولحقه أسبوع آخر ثم تلاهما أسبوع ثالث وانقضى شهر بكامله.. وأنا انتظر قدومها كل صباح، أنتظرها بفارغ الصبر، أنتظرها

وكأنني واقف على كتل رهيبة من الجمر اللاهب.. فربما يأتي صباح أراها تطل أمامي بابتسامتها وسنيها وفتحتهما حتى تعود لنفسي المضطربة توازنها.. و.. جاءت.. رأيتها، شعرت حينها أن الدنيا رغم اتساعها لم تسمح لقدم واحدة.. الفرحة العارمة هطلت على رأسي مثل زخات من الثلج البارد.. سمعت كأن روحي تزغرد.. شعرت بقلبي ينتفض بحركة موجعة، بل أحسست برعدة لذيذة تخدر أعصابي.. سألتها.. كلماتي تنطلق من فمي تتسابق تتعثر، لكنها كانت رغم ذلك تخرج بحرارة..

– يا إلهي.. جئتِ أخيراً.. أصدق نفسي، أكذب عيني.. هل أنا في حلم؟! أم يقظة قاسية؟! كدت أموت خوفاً وجزعاً.. افتقدتك أكثر من روحي.. افتقدت ابتسامتك، سنيك وتلك الفتحة.. لم أكن اعرف القلق أو الخوف من قبل كما عرفته الآن.. لقد جئت.. جئت.. أخيراً يا أميرة الابتسامات.. ماذا حل بك؟! ماذا جرى لك؟! ماذا أصابك؟!

أوقفت هرولة سيل الكلمات المتلاحقة عندما مدت لي بيدها ممسكة بورقة ملفوفة بعناية، وهي تنظر إليّ نظرات غريبة، تحوم حولها هالات من الدموع.. لم تتكلم.. بل تركتني أفتح الورقة، وخليط من المشاعر تدق رأسي كالمطرقة.. نظرت إليها فوجدت أنها كأنما تحمل في عينيها مفاجأة ما.. كدت أصرخ بها.. "هيا ابتسمي.. لقد افتقدت ابتسامتك وتلك.."، نظرت إلى ما تحتويه الورقة، ذهلت، أغلقت قبضة يدي بقوة على الورقة، نظرت إليها لم أفهم شيئاً ولا زال الذهول والدهشة يصرعان قلبي، ألفيتُ عينيها هذه المرة تنطقان بصمت، ولكن بلغة لم أفهمها..

و.. انفرجت شفتاها لترسم ابتسامة خائفة مترددة مرتعشة، ولكنها.. ليست تلك الابتسامة التي ألفتها من قبل تزين صدرها سنان وفتحة بينهما.. فتحت يدي مرة أخرى لأرى ما تحمله تلك الورقة.. سنان ولون داكن يلف جذريهما.. تطلعت إليها.. لازالت تبتسم.. سقطت دمعتان ثقيلتان.. مددت يدي امسح دمعتيها ابتسمت لها.. كابتسامتها خائفة مترددة مرتعشة.. لكنها ألقت بنفسها على صدري.. احتضنتها بقوة.. لقد عرفتُ كل شيء..

1996/1/18

openikan.com

الزائــر الغــريب

خرجت الفتاة في الثامنة صباحاً من منزلها وأغلقت خلفها الباب بالمفتاح ووضعته في حقيبة يدها متجهه كعادتها إلى عملها.. كانت ابتسامة غريبة مرتسمة على وجهها تعبر عن إحساس خفي لا تدري عما يكون.. هبطت درجات السلم الحجري بخطوات بطيئة، يحدث كعب حذائها قعقعة مكتومة..

وقف شاب لا يظهر وجهه أمام باب ذلك المنزل الذي غادرته الفتاة منذ ساعة واحدة، تتدلى حقيبة صغيرة على كتفه وبيده يحمل شنطة صغيرة أخرى، ضغط زر جرس الباب وهو يحرك رأسه يميناً ويساراً ليقتنص بطرف عينيه درجات السلم سواء النازل من أعلى أو الطالع من الأسفل بحذر شديد، وهو يبدو طبيعياً تماماً وفي تلك الأثناء أنفتح الباب الأيسر واندفعت امرأة تعدت الأربعين من عمرها، ترتدي ثوباً منزلياً شفافاً، وقع بصرها على الشاب الذي اتجه بوجه في الاتجاه الأخر، وسرعان ما عادت أدراجها وأغلقت الباب قبل أن يراها ذلك الزائر وهي بهذا الثوب الذي لا يليق لأي كان أن يراها به.. وبعد برهة سمع صوت امرأة عجوز جاء من داخل البيت متحشرجاً تسحب الكلمات سحباً:

– أنتظر لحظة سأفتح الباب حالاً.. من هناك؟!

وضع الشاب يده على فمه قائلاً مغيراً نبرات صوته:

– هذا أنا يا خالة.

أجابت العجوز متسائلة:

– من أنت؟!

قال الشاب، بصوت خافت خوفاً من أن يسمعه أحد..

– أنا زائر يا خالة.. جئت مرسلاً من قبل أبنك الذي يعيش في الغربة.. أنه صديقي وقد أرسل معي رسالة وبعض المال إليكم..

فتحت العجوز الباب وفرحة غامرة تتراقص على وجهها المتغضن بتجاعيد واضحة، وآثار النوم بادياً من عينيها الحمراوين. وقالت مهللة مرحبة:

– أهلاً بك يا بني.. أهلاً وسهلاً.. اعذرني يا ولدي، يبدو أنك بقيت طويلاً تطرق الباب.. لقد كنت نائمة.. تفضل يا بني..

رد الزائر الشاب قائلاً وهو يمزج الخجل في نبرات صوته..

– لا بأس يا خالة.. أرجو أن تعذريني، لأنني سببت لك إزعاجاً ولكنني مضطراً، لم أستطع أن آتي إليكم مساء الأمس لظروف منعتني، ولأنني على عجلة من أمري، إذ عليّ أن أسافر بعد ساعة إلى مدينتي، فقد جئت إليكم في مثل هذا الوقت..

قالت الأم وهي تفسح الطريق لذلك الزائر:

– ليس عليك أن تبرر ذلك.. لقد جئت في وقتك.. يبدو أن لدى ولدي أصدقاء كثيرون اعرفهم جميعاً.. لابد أنك جئت في أول زيارة.. ربما كان اهلك بشوق كبير، إنني أراك لأول مرة، ولكن لا بأس، فمن

يأتي رسولاً من عند ولدي، فليس هناك بأس.. تفضل يا بني. اعتبر نفسك أنك في بيتك تماماً، لابد وأننا سنراك مرة أخرى.. أهلاً بك.. لو كنت قد جئت في وقت أخر، لكنت قمت بالواجب، ولن أدعك قبل أن تتناول طعام الإفطار.. ماذا أفعل؟! لقد جئت ونحن صائمون ولا أستطيع أن أجبرك على البقاء.. أدخل يا ولدي فربما جئت في وقت أخر من يدري.. ادخل يا ولدي أهلاً بك..

دخل الشاب وأغلقت العجوز الباب خلفه ولازال صوتها يلهج بالكلام ولكنه لم يسمع منه شيئاً..

مرت نصف ساعة، حيث خرجت المرأة التي تسكن في الجوار مرة أخرى بعد أن تأكدت أن الشاب ليس موجوداً.. قائلة لنفسها:

– لعله ذهب..

طرقت المرأة باب العجوز طرقاً خفيفاً ثم أشتد الطرق أكثر، ضغطت على زر الجرس مرة ومرتين وثلاث.. ولما لم تفتح لها العجوز.. ألصقت أذنها بالباب لتسمع.. وصل إلى سمعها صوت "خربشة خفيفة وغريبة، ابتسمت لنفسها قائلة:

– لا بأس يبدو أنها منشغلة بتفحص ما بعث به أبنها مع ذلك الزائر الغريب جعلها لا تنتبه لشيء.. سأعود إليها مرة أخرى فربما فرغت من عملها..

تركت باب منزل العجوز ولكنها لم تدخل غرفتها بل توجهت إلى منزل جارتها الثانية طرقت الباب.. وبعد قليل فتح الباب لتطل من فتحته امرأة شابة في الثلاثين من عمرها..

– أرجو المعذرة يا عزيزتي.. يبدو أنني أزعجتك..

قالت المرأة الشابة مبتسمة:

– كلا يا أختي.. كنت مستيقظة.. هل تريدين شيئاً؟!

– نعم، إذا لم يكن ذلك إزعاجاً لك.. أريد علبة ثقاب..

قالت المرأة الشابة:

– لست أدري إن كان لدي بعضاً من العيدان.. ولكن انتظري.. سأبحث لك فربما وجدت بعضاً منه.. لقد أوصيت زوجي أن يأتيني بالثقاب عندما يعود من عمله..

دخلت المرأة الشابة وبعد برهة خرجت وعلى وجهها بعض الأسف:

– أن حظك سيئ يا جارتي العزيزة.. لم أجد عوداً واحداً.. ولكن هل طلبتي من جارتنا العجوز فحتماً تجدين لديها..

قالت المرأة:

– لقد طرقت الباب، ولكنها كما يبدو انشغلت مع زائرها الذي جاء لها ببعض الهدايا من عند أبنها المغترب.. على أية حال سأعاود الطرق عليها متى ما أنصرف زائرها..أذهبي لعملك يا عزيزتي..

بعد ما يقرب من ساعة خرجت المرأة مرة أخرى لتطرق باب منزل العجوز، ولما لم تفتح لها، علتها الدهشة وهي تحادث نفسها:

– آمن المعقول أن يبقى ذلك الزائر كل هذا الوقت؟! أم تراه قد خرج وذهبت لتواصل نومها.. نظرت إلى ساعة يدها وحركت رأسها وقد ظهر الاستغراب على وجهها مستطردة.. ليس من المعقول أن تعود إلى نومها فهي لا تنام في هذا الوقت، الساعة تقترب من الثانية عشرة

إذ.. ربما كانت... يا لهذا الحظ العاثر، سوف أتأخر عن أعداد الفطور، ماذا اعمل؟! ليس الذنب ذنبي، لقد طلبت منهم ذلك، ولكن لم يكلف احد نفسه ليشتري علبة ثقاب.. فليكن ما يكون.. سأذهب إلى النوم، فهم من يتحمل المسؤولية..

عادت الفتاة من عملها بعد الظهر وبعد أن ضغطت على زر جرس الباب ولم يجب أحد، تساءلت مستغربة:

– ما الأمر يا ترى؟! أنها لا تنام إلى هذا الوقت.. لابد أن وعكة لحقت بها..

أخرجت مفتاحها من الحقيبة التي تحملها وفتحت الباب وهي تنادي وقد تركته مفتوحاً:

– أمي.. أمي.. أين أنت؟!.. أمي..

كان المطبخ خالياً، بل لم تمسه يد منذ أن تركته عندما خرجت في الصباح.. ساورها بعض القلق.. اتجهت عبر الممر والذي تقع عند نهايته غرفة أمها وقبل أن تصل لفت انتباهها دواليب غرفة الاستقبال المفتوحة.. دخلت الغرفة وصعقت.. جالت بعين فاحصة يشوبها خوف عارم.. لم تر أجهزة التلفاز والفيديو والكمبيوتر والريسيفر في مكانها توجست خيفة، توجهت إلى الدولاب فوجدت الصندوق الكبير الخاص بالحلي والمجوهرات الثمينة مفتوحاً وليس به شيء، والصندوق الأخر الذي كان به ما يقرب من ثلاثة مليون ريال مفتوح هو الأخر وليس به شيئاً وكذلك الصندوق الخاص بالعملات الأجنبية المختلفة والتي تساوي في مجموعها ملايين الريالات، والملابس الجديدة وبعض التحف

الثمينة.. كانت الغرفة توحي لها أن أحداً ما قد عبث بها.. لم تستطع أن تتمالك نفسها حتى أطلقت صوتاً حاداً مزق سكون الظهيرة.. وما هي إلا ثواني حتى كانت جارتيها تقفان واحدة خلف الأخرى والدهشة تعلو وجهيهما:

سألت المرأة الشابة:

– ماذا حدث؟! ما الذي جرى؟!

– لا ادري.. ولكنني أعتقد أننا قد تعرضنا للسرقة.. لا شيء هنا.. المجوهرات والحلي والنقود الأجنبية والأجهزة كلها اختفت..

قالت المرأة متسائلة:

– وأين ذهبت أمك؟!

تنبهت الفتاة.. فأسرعت تتبعها جارتاها إلى غرفة نومها، دفعت الباب ولكنها رفعت يديها إلى خديها وقد أطلقت لصوتها العنان ليمزق نياط القلب.. تسمرت الجارتان عند مدخل الغرفة، تنظران بعينين جاحظتين وقد تلون بشرة وجهيهما باصفرار الخوف والرعب..

صرخت المرأة:

– يا إلهي..

وصرخت المرأة الشابة هي الأخرى:

– من فعل هذا؟!

قالت المرأة وهي تؤكد قولها:

– ليس غيره.. أقسم انه هو، وليس احد غيره.. ذلك الزائر الغريب الذي جاء صباح اليوم..

كانت العجوز، ملقاة على السرير وجهها إلى الجدار وظهرها إليهم.. وبقعة دم كبيرة غطت بها الوسادة من مؤخرة رأسها المهشم.. وفي الجانب الأيسر من ظهرها انغرست سكيناً حتى المقبض..

1996/1/22

obeikan.com

obeikan.com

الجـــارة الجميـــلة

هرول بأقصى سرعته داخلاً العمارة التي تقع شقته في الطابق الرابع والمطلة شرفتها الصغيرة على الشارع، وكأن ثمة شياطين تطارده، أغلق باب غرفته رامياً بكتبه وكراريسه على الطاولة متجهاً صوب النافذة تحيط بها شرفة صغيرة وراح يحدق في النافذة نصف المغلقة التي أمامه مباشرة بكل شغف ولهفة.. طريق يفصل العمارتين يبدأ من أسفل الشارع وينتهي عند المنعطف في الاتجاه الأخر.. بقي محملقاً أمامه لعدة دقائق.. ثمة ملابس وضعت على حبل الغسيل.. ويبدو أنه لمح وهو قادم إلى منزله يداُ رقيقة تثبت الملابس على حبل الغسيل، وتخيل أن تلك اليد الرقيقة لن تكون سوى لفتاة جميلة.. لم يستطع أن يرى أحداً في الغرفة بسبب العتمة التي تخيم على جوها، ولكنه بقي منتظراً، لعلها تخرج ولابد لها من ذلك ويراها بوضوح أمامه.. تذكر وهو واقف أنه منذ أن غادرت تلك العائلة هذه الشقة منذ أكثر من عام ونصف العام، لم ير النافذة مفتوحة قط.. عرف أن أسرة جديدة قد حلت بها وفيها تلك الفتاة الجميلة التي رسمها له خياله.. كان شاب أشعث الشعر كأن المشط لم يمسه منذ حين.. تبدو على ملامح وجهه بلاهة غير مصطنعة وعيناه الرخوتان الكسولتان يكسوهما غباء لا تخطئه العين وعلى وجنتيه المدورتين تبرز حبيبات برؤوس بيضاء وحمراء

أطلق ابتسامة لا معنى لها وهو يلعق بلسانه الحمراء شفتيه الضامرتين بطريقة تدل على شذوذ جنسي فاضح.. مرت ساعة كاملة، لم يشعر بها، ولم يفقد الأمل لأنه يدرك تماماً من أنها ستخرج حتماً لتجمع ملابس الغسيل..

خرجت امرأة ترتدي ثوباً طويلاً يصل طرفه إلى أخمص قدميها وكمين طويلين يغطيان يديها حتى المعصم وطرحة سوداء تتلفح بها، تخفي رأسها وجزءاً من وجهها، وأخذت تنزع الملابس ببطء لتضع بدلاً منها ملابس أخرى، وقد أدارت له بظهرها.. أخذت أنفاسه تتلاحق وقد راقه ذلك المنظر وخاصة وهو يحملق بعينين تكادان تطيران من محجريهما إلى أسفل خصرها، أحمرت وجنتاه تيبست شفتاه الضامرتين اللتين يلعقهما بلسانه بين حين وأخر لم تكن المرأة قد ألقت إليه بالاً فهي مشغولة بعملها ولم تمض فترة حتى وصل به الحال حداً لا يوصف ضاقت عيناه وانعكس على وجهه لحظتها شعور غريب.. انتهت المرأة من عملها ودخلت دون أن تلتفت إلى ذلك الشاب الذي يبدو أنه تجاوز السادسة عشر من عمره.. أعاد لنفسه هيئته السابقة وهو ينظر خلفه، ثم ترك الشرفة ودخل غرفته وكأن شيئاً لم يكن.. جلس خلف الطاولة وأخذ كراسة وقلم حبر جاف، قرر أن يكتب لها رسالة.. أخذ يفكر بماذا يبدأ.. وضع طرف القلم بين أسنانه يديره بيده يميناً ويساراً محدثاً صريراً خافتاً:

– يجب أن تكون رسالة متميزة أثير بها انتباهها إليّ.. ليست كتلك الرسالة التي سبق وأرسلتها لتلك الفتاة التي كانت تعيش في المنزل

نفسه قبل أن يرحلوا لقد كادت أن تسبب ليّ مشكلة، لولا لطف الله لكان أخوها قد أرسلني على نقالة المرضى إلى غرفة العمليات.. نعم، عليّ أن أختار كلماتٍ منمقة وجيدة ورائعة.. ولكن.. أين تلك الكلمات التي يجب أن أبدأ بها؟!

أخذ يفكر ويفكر ولازال القلم يحدث ذلك الصرير الخافت وهو يدور بين أسنانه برهة من الوقت توقف وبدأ يكتب..

– منذ أن رأيتك لأول مرة وأنا.. (توقف عن الكتابة متسائلاً) كلا ليست هذه الطريقة.. كيف أقول لها أنني رأيتك وأنا لم أرها.. (يمزق الورقة) هذا أمر غير مقنع (وضع القلم بين أسنانه كما فعل من قبل وهو يفكر، ثم لمعت بذهنه فكرة أبتسم لها، اخذ القلم وكتب يقول) قد لا تعرفين من ذا الذي كتب لك هذه الرسالة؟! وقد تتسائلين عمن أكون؟! ذلك شيء طبيعي، وحتى لا تذهبين بعيداً سأعرفك عمن أكون وما هو هدفي من وراء كتابتها.. إنني أبادر بالخطوة الأولى ليعرف كل منا الأخر وعندما يبدأ التعارف بيننا عن طريق المراسلة عبر الشرفات ويطمئن أحدنا للأخر يمكننا أن نخطو خطوتنا التالية ليزداد كل منا اقتراباً أكثر مما يساعدنا على أن نتعود وبعد التعود يولد الحب الذي يؤدي بطبيعة الحال إلى النهاية السعيدة، فنصبح أسعد زوجين في العالم.. سأنتظر ردك بفارغ الصبر ولكِ أن تسألي ما شئتِ وختاماً لكِ قبلاتي (يتوقف ثم يشطبها) ولك حبي (يشطبها) ولك... وعليكم السلام..

يكور الورقة وقد دس وسطها شيئاً ثقيلاً حتى لا يأخذها الريح إلى غير الاتجاه الذي يريده ثم يقذف بها لتستقر داخل الغرفة المقابلة ويختبئ خلف النافذة ذات المربعات الخشبية الدقيقة ينظر بعين نهمة..

فتحت أمه الباب دون أن يشعر بها، وقفت تراقبه وقد وضعت يديها حول خصرها، تهز رأسها ببطء قطبت بين حاجبيها، كانت الأم بجسدها البدين والذي يزن على ما يبدو أكثر من مائة وخمسين كيلو غراماً، تحمل بطناً بارزاً وثديين متهدلين يتدليان من تحت ثوبها ليصل طرفاهما إلى وسط بطنها، كان وجهها العابس على الدوام ترتسم عليها تكشيرة يخافها الشيطان قبل الإنسان دخلت بخطوات وئيدة يهتز جسدها كله.. قالت بصوت به بحة ونبرة غضب واضحة:

– ماذا تعمل هنا بحق الله أيها العاق، قليل الحياء؟!

ارتبك الابن تماماً لتلك المفاجأة تلعثم ولم يدر ماذا يقول..

– أ أ... أمي.. (سرعان ما يغير طريقة حديثه) آه.. لقد كنت انظر إلى صديقي الملعون، أنك تعرفينه.. لقد رميته.. بل هو.. نعم هو رماني بحجر ثم رميته.. كلا.. أنا لم أرمه.. لم أرمه.. وإنما بقيت انتظر.. نعم بقيت هكذا انتظره حتى إذا رماني أفاجئه.. أليس ذلك جيداً يا أمي؟!

لم يكن في وجهه أو في تعبيره ما أقنع الأم، لوت بفمها جانباً حتى أصبح وجهها يشبه إلى حد ما كرة اليد البيضاوية "الرجبي" بشفتيها الغليظتين وعينيها المتورمتين ووجنتيها المتهدلتين قالت بسخرية مريرة:

– هكذا إذن؟! أنه ولد شقي يستحق الضرب بعصا غليظة حتى ينكسر له ضلع لم يفهم الابن ما ترمي إليه أمه، فتح فمه واسعاً مبتسماً حتى انغلقت عيناه وهو يقول:

– بل ضلعين أو ثلاثة.. أنه يستحق أكثر من ذلك.. أنه..

صمت وقد رأى وجه أمه قد تغير تماماً مما افزع منظره الذي كان شبيهاً إلى حد كبير بوجه البومة..

– ألا تخشى من وجهك القبيح كوجه أبيك الذي يشبه حذاء "العرندس"؟؟ تمنيت أن تأخذ عني ما لم يملكه والدك، ولكنك أخذت عنه كل ما يملكه حتى بلاهته وغبائه.. إلى متى ستبقى هكذا؟! لقد كنتَ سبباً في رحيل تلك الأسرة الطيبة (تشير بيدها الثقيلة إلى الشقة المقابلة لهم) بسبب طيشك وجنونك كما هو طيش والدك وحماقته وغباؤه، ولا يترك زنزانة السجن يوماً إلا ليعود إليها في اليوم التالي، بسبب شجاره الدائم وعراكه الذي لا ينقطع مع الآخرين..

قال لها الابن محاولاً أن يبدو جاداً:

– أمي، ولماذا تقولين ذلك عن أبي؟! انه شجاع، أنني أفخر به أمام زملائي.. لقد أصبح الجميع يخافونه ويعملون له ألف حساب..

صرخت الأم بصوتها المبحوح وقد أحمر وجهها:

– اسكت أيها الجرو الأجرب، عليك لعنة وعلى أبيك ألف لعنة، أنه ليس سوى رجل جبان، يحسبون على جسده ألف شبر لعصيهم.. اذهب وشاهده الآن فستجده يئن ورأسه ينزف دماً كما ينزف أنفه وفمه..

لينقذني الله الجبار منكما.. إلى من كنت تسترق النظر، أخبرني؟! وإلا جعلتك ترقد بجانب والدك..

أجابها الابن بخوف شديد وتردد وتلعثم:

– هل.. هل.. إذا قلت الحقيقة.. هل.. ولكنك.. أرجوك يا أمي.. لا أدري ماذا أقول.. لكنني أعرف انك..

صرخت الأم بحدّة:

– هل ستتكلم؟! أقسم بالله الذي خلق هذا الكون لجعلتك تتكلم غصباً.. إنني أعرفك. إنك مثل والدك لا يأتي إلا بالضرب.. هل ستتكلم؟!

قال الابن منهنهاً:

– سأخبرك.. ولكنك ستضربينني.. أعرف أنك ستضربينني، ولكن أرجوك يا أمي.. أنني أحبك.. يعلم الله كم يبلغ مقدار حبي لك.. هل ستضربينني؟!

قالت الأم وعيناها تخفتان من الغضب ولكن بصوت أقل حدّة:

– إذا تكلمت بصدق، فليس هناك حاجة لضربك.. وإذا شعرت أنك تكذب لا لا أريد أن أذكرك.. أنك تعرف ماذا ينتظرك.. هيا تكلم..

يتردد قليلاً وهو يفرك أصابعه خجلاً وقد أدلى برأسه إلى الأرض يقول بصوت خجول كالهمس:

– كنت.. كنت.. انظر إليّ.. (يشير بيده إلى الخلف) إلى هناك..

فهمت الأم ما يرمي إليه أبنها فقالت له ساخرة:

– حسناً، وكيف وجدتها؟! جميلة مثل تلك التي كانت؟!

أشرقت أساريره بفرح، لا يدري كيف يرسم ابتسامة طبيعية على وجهه: قال كالواثق بنفسه:

– نعم.. أؤكد لك ذلك يا أمي.. وربما كانت أجمل بكثير من تلك التي كانت.

قالت الأم وهي تحدق في عينيه:

– هل رأيتها؟!

أرتبك من أثر المفاجأة ولكنه قال بنفس طريقته:

– كلا.. بل.. نعم.. رأيتها.. أقصد لم أرها ولكنني رأيتها..

صرخت الأم غاضبة:

– هل رأيتها أم لا؟! كلمة واحدة أريدها..

أرتبك وزاد تلعثمه:

– نعم، نعم، رأيتها.. (يقلب يده موجهاً ظهرها ناحية أمه) ولكن لم أرها.

زعقت الأم بألم وقد تحول وجهها إلى كتلة من حجر:

– يا إلهي يا رحيم.. هل ستنقذني من هذه الحفرة النتنة التي ارتميت فيها.. ولكن أين ستذهبان من عذابه يوم الحساب؟!

قال الابن باستياء:

– لماذا تقولين ذلك يا أمي.. إننا لم نفعل شيئاً حتى نهرب من يوم الحساب

صرخت الأم بغيظ:

– أنا لم أقصدكما عليكما اللعنة، بل قصدت أبي وأمي، اللذان كانا سبباً في وجودي بينكما.. ولو أنكما تستحقان نفس المصير.. تكلم الآن قل كلمة واحدة..

قال الابن بوضوح:

– لقد رأيتها يا أمي.. لست أكذب عندما قلت لك ذلك.. ولكنني لم أرها..

تصرخ مقاطعة وقد بدت كشيطان من شياطين جهنم:

– لابد أنك ستدفع بي إلى حافة الجنون.. هل تمزح معي؟! كيف تراها ولا تراها؟! أريد كلمة واحدة أيها اللعين.. لماذا تعذبني هكذا؟!

قال الابن بنفس وضوحه، لكنه كان أكثر هذه المرة..

– قلت لك ولكن لا تريدين أن تصدقيني.. لقد رأيتها.. رأيتها من الخلف.. ولكن لم أرها.. أقصد لم أر وجهها..

كادت أن تصرخ، ولكنها ضبطت أعصابها، وبعد أن هدأت قليلاً قالت كأنها تستقرئ أفكاره:

– حسناً، فليكن الله في عوني.. قل لي يا عزيزي.. عندما رأيتك تقف خلف النافذة تتلصص عليها.. كنت قد رأيتها كما قلت من الخلف.. فكيف عرفت أنها جميلة؟!

أجابها الابن بتباهٍ:

– أن الفتاة التي تبدو جميلة من الخلف، فهي أيضاً جميلة من الأمام..

ابتسمت بسخرية وقالت:

– ذلك ليس كافياً كي تحكم على إنسان أيها الوغد..

قال لها بنفس حماسه:

– لقد رأيت فتيات كثيرات يا أمي، وعندما أرى واحدة منهن تبدو جميلة من الخلف، فإن اعتقادي لا يخيب أبداً.. وأستطيع في الوقت نفسه أن أميز بين الفتاة الجميلة وغير الجميلة.. صحيح أنني رأيتها من الخلف وهذا ما يؤكد لي أنها جميلة كأنني رأيتها من الأمام.. أنني واثق من كلامي..

ضحكت الأم، وربما للمرة الأولى حتى أدمعت عيناها وقالت وهي تطبطب على كتفه:

– أنك ما زلت صغيراً على مثل هذه الأمور يا بني، لقد تجاوزت السادسة عشرة من عمرك، وأمامك طريق طويل.. أن مجرد معرفة فتاة واحدة تتطلب منك سنوات طويلة لمعرفتها.. لابد أنك قد فكرت أن تكتب لها رسالة أو شيئاً من هذا القبيل؟!

قال لها الابن بدهشة:

– لقد فعلت ذلك حقاً يا أمي، ولكن ما أدراك بذلك؟!

قالت الأم بصوت هادئ:

– وهل تظن أنك الوحيد الذي فعلت ذلك؟! كل إنسان بمثل سنك يقوم بنفس ما قمت به.. ولكن ليس ذلك هو المهم.. إنما المهم في الأمر أن تعرف متى وأين ترمي صنارتك..

قاطعها بثقة قائلاً:

– لقد عرفت يا أمي متى وأين.. ورميت صنارتي، وها أنا الآن انتظر النتيجة..

نظرت إليه الأم وقالت بهدوء:

– حسناً.. كما تشاء يا بني.. إذا كنت تريد أن تعرف النتيجة فليس لدي مانع (يقفز من الفرحة ولكنها تمنعه من الكلام) انتظر حتى انهي كلامي لا تتعجل الأمر.. إذا كنت تتباهى بطريقتك تلك.. وتقول إن جارتنا فتاة جميلة بمجرد أن شاهدتها من الخلف، عليك أن تعرف شيئاً مهماً.. لقد رأيتُ تلك الجارة الجميلة وتحدثتُ معها عندما جاءت لتسكن هنا.. لقد أخبرتني أنها قد فقدت زوجها، وربما كانت فعلاً بحاجة إلى زوج يقف إلى جانبها، ويساعدها ليبني معها حياة أفضل..

هل فهمت؟! أنها امرأة بحاجة لزوج يحميها، وليست بحاجة إلى طفل تربيه..

1996/1/25

أحلام نجار بسيط

أطلقت زوجة النجار، الحامل في شهرها الأخير، فجأة، صوتاً حاداً من فرط الألم الذي انتزعها بقسوة من قبضة سلطان النوم. هب زوجها النائم بجانبها مذعوراً، أخذ يتحسس بيده المرتعشة مفتاح النور ليشعله وهو يدمدم بكلمات غير مفهومة، لكن الكهرباء مقطوعة، لم يكن قد شعر بأن مروحة السقف قد توقفت منذ فترة وجيزة وهو غارق في أحلامه.. تدفقت اللعنات من فمه كالسيل الجارف على هذه الكهرباء وعلى القائمين عليها بل وعلى من صنعها.. مد يده إلى حيث علبة الثقاب التي تركها فوق علبة السجائر، قبل أن يخلد إلى النوم وهو يطفئ سيجارته التي انتهى من تدخينها.. أشعل عوداً ليرى ماذا جرى لزوجته من خلال ذلك الضوء الباهت، تأوه بصوت غاضب، أطفأ عود الثقاب الذي تآكل بسرعة قائلاً لها وهو يلمس كتفها بحنان:

– انتظري قليلاً يا عزيزتي، ريثما أشعل الفانوس.. عليهم اللعنة.. ألا يشعرون بالحر حتى يطفئون الكهرباء؟! سأعود حالاً.. يوم من بدايته.. تماسكي قليلاً.

تلمس طريقه إلى المطبخ بواسطة أعواد الثقاب التي يشعلها عبر ممر ضيق لا يزيد عرضه عن متر وطوله الذي يبلغ متران، كان على الجانب الأيمن باب لغرفة صغيرة يقابلها حمام للاغتسال وقضاء

الحاجة، ويبعد عن الحمام بخطوتين باب للخروج.. وفي نهاية الممر يقع المطبخ.. أشعل الفانوس وأسرع به إلى الغرفة.. كان وجهه شاحباً وآثار النوم بادية على عينيه.. سألها بصوت يطويه الخوف والجزع، لكنه لا يخلو من لمسة حنان مشبوبة، محاولاً في الوقت نفسه أن يخفف عنها ذلك الألم:

– هل عاودك الألم من جديد؟! ماذا تشعرين؟! ربما كان السرير هو السبب.. أنه غير مناسب لك على الإطلاق.. ولكن لا بأس لم يتبق سوى القليل حتى افرغ منه.. لقد قلت لك ذلك من قبل.. أنه سرير مريح، وسوف تشعرين به بنفسك.. لكنني سأحاول غداً بإذن الله أن أنتهي منه تماماً.. ثقي بقولي.. (لكنها لم تستطع أن تجيب، فبقيت تطلق أنات حادة طويلة وهي تتلوى بجذعها يميناً ويساراً..) اهدئي يا عزيزتي.. أنه ألم عارض كما يحدث لك، وسوف يذهب تماماً.. انك تؤذين نفسك بهذا الصراخ وربما انزعج الأطفال.. حسناً، يبدو أن ألمك قد أشتد هذه المرة أكثر من ذي قبل.. لا عليك.. سأذهب لأحضر لك سيارة، لست أدري ما هو الوقت الآن؟! ولكن مهما يكن سأحاول أن أجد سيارة.. يمكنك أن تهدئي قليلاً حتى أعود لن أتأخر كثيراً..

تركها ليلقي نظرة من خلال نور الفانوس الشاحب إلى أطفاله الستة الذين ينامون متكومين على حصير قديم والعرق يتصبب منهم.. تلتمع أجسادهم المبللة بضوء الفانوس.. كانت الغرفة صغيرة وضيقة تشبه زنزانة السجن الانفرادي، أنقلب أحدهم جانباً ويطوح بقدمه في الهواء

لتهوي على رأس من ينام بجانبه، بينما أخذ الثاني يهرش رأسه بشدة ثم يحك صدره.. دمدم النجار بغضب وحزن..

– الرحمة يا إلهي، أرفق بهم.. ما ذنب هؤلاء الأطفال يتعذبون هكذا؟! لم تعرف قلوبهم شيئاً من الرحمة، لماذا يطفئون الكهرباء في هذا الوقت من الليل وهم يعرفون إن الحر لا يرحم؟! ليأخذهم الشيطان أينما كانوا ومن كانوا.. لما لا يفكرون بالأطفال والمرضى ويتركون الكهرباء تعمل دون انقطاع؟!.. لست أدري ماذا سيفعلون إذا ما صحى احدهم في هذا الظلام الدامس والحر القاتل.. الطف بهم يا رب فأنت أرحم الراحمين.. (ترك الفانوس بالقرب من غرفتهم على أرض الممر فربما صحى احدهم ليقضي حاجته..)

التقط قميصه وخرج وهو يدخل أزراره في ثقوبها كان الظلام حالكاً أخذ يتلمس طريقه بصعوبة بالغة وبحذر شديد حتى لا يقع في حفرة أو يتعثر قدمه بحجر، كان بيته المبني من قوالب الطين يقع في طرف الحي الفقير والذي تكثر فيه الأزقة الضيقة والملتوية كالثعابين بين البيوت الصغيرة التي بنيت بطريقة عشوائية اغلبها من الصفيح وبعضها من الخشب والقليل منها مبنية من قوالب الطين.. كان النجار يملك محلاً صغيراً في المدينة يمارس فيه عمله في صناعة الأثاث المنزلية البسيطة والتي تدر عليه دخلاً ضئيلاً.. بل كان كل سكان هذا الحي يمارس مهنة ما مثل ترقيع الأحذية أو إصلاح أنابيب المياه أو تسليك المجاري المسدودة أو تنظيف الشوارع وبعضهم يعمل في

دكاكين بأجر يومي أو في مقاهي أو مطاعم وغير ذلك من هذه الأعمال..

وصل النجار إلى الطريق العام، وهناك أرتكن على الرصيف المظلم ينتظر مرور سيارة، كانت الريح الخفيفة التي تهب نسماتها بين وقت وأخر قد خففت من ضيقه وتبرمه، إلا أن القلق والخوف ظلا يصطرعان في أعماقه صراع الموت.. مر الوقت بطيئاً ينخر قلبه وذهنه وهو يلهج بالدعاء إلى الله ليسوق إليه بسيارة ما.. لم يكن يدري كم بلغ به الوقت وهو واقف ينتظر ولكن كان الوقت ثقيلاً على نفسه.. وفي لحظة تبسم له الحظ.. لمح وسط الظلام نور سيارة انعطفت لتدخل الشارع الذي كان يقف قريباً منه.. لم ينتظر بل أطلق لساقيه العنان يجري بكل ما أوتي من قوة، كانت السيارة تخفف من سرعتها كي تدخل ذلك الشارع، وكان قد استطاع أن يقترب منها.. وقبل أن تدخل الشارع صرخ بأعلى صوته وهو على بعد بضعة أمتار منها..

– أنت يا سيدي.. أرجوك، أيها السائق المحترم.. هل تتكرم بالتوقف لحظة؟!

أوقف السائق سيارته وكان النجار قد اقترب منه.. قال وهو يلهث وبصوت أقرب إلى الاستجداء:

– سيدي لقد ظللت وقتاً طويلاً أنتظر سيارة ولم أجد.. أن الله سيكتب لك عني ثواباً إذا ساعدتني.. أرجوك يا سيدي أنني.. قاطعه السائق بضيق وتبرم:

– إنك تبحث عن سيارة أجرة أليس كذلك؟! ولكن هذه السيارة خاصة ليست سيارة أجرة، هل تعرف كم الساعة الآن؟! إنها تقارب الثانية صباحاً.. لا أستطيع أن أعمل لك شيئاً..

لم يشأ النجار أن يفقد هذا الأمل فقرر أن يتمسك به بأي شكل.. قال له:

لم يدرِ في خلدي يا سيدي أن أعرف الوقت، ولا أدري لماذا ترفض مساعدتي.. لو كنت وجدت سيارة أخرى يا سيدي، صدقني ما كنت ناديتك أو طلبت منك مساعدتي. إن زوجتي بين الحياة والموت، ولا أدري ماذا جرى لها منذ أن تركتها أرجوك يا سيدي، لو لم يكن الأمر يستدعي هذه المخاطرة لما تركت منزلي وخرجت.. أنها على وشك الولادة.. ولا أعتقد أن ذلك بالشيء الهين..

قال الرجل بامتعاض:

– هل تعرف أن مستشفى الولادة يبعد عن هنا بحوالي نصف ساعة ذهاباً ومثلها إياباً.. ليس لدي الوقت الكافي لفعل ذلك، لقد تركت عملي دون أن يشعر بي أحد حتى أوصل العلاج لابني المريض على أن أعود بأسرع وقت ممكن.. فلو شعر أحد بغيابي لن يسامحوني على ذلك وربما تعرضت لعقاب قاس.. أرجوك أن تفهمني.. أنني سأجد مشقة في ذلك.. المعذرة..

تشبث به النجار مستعطفاً..

– أرجوك يا سيدي.. إن حياة زوجتي بين يديك، إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.. سأدعو الله من أجلك حتى لا يشعرون بغيابك..

زفر الرجل بحيرة، ولكنه لم يستطع هذه المرة إلا أن يخضع لإلحاح النجار ويستجيب لطلبه بعد أن شعر أنه بحاجة إلى مساعدة ولم يكن منه إلا أن قال:

– أستغفر الله العظيم.. لقد أحرجتني أيها الرجل.. هيا أصعد وسأسلم أمري لله ليفعل ما يشاء.. ولكن عليّ أن أذهب إلى بيتي لأسلم الدواء لزوجتي وبعدها سأتفرغ لك..

قال النجار بصوت لم تسعه الفرحة غير مصدقٍ نفسه..

– إفعل ما شئت، أنني لا أطمع منك أكثر من ذلك.. نعم يا سيدي.. ذلك حقك.. سوف انتظر حتماً.. شكراً يا سيدي، جزاك الله عني ألف خير..

أوقف الرجل سيارته أمام منزله، وغاب فيه لأكثر من نصف ساعة كانت الدقيقة تمر صعبة وثقيلة على النجار المسكين الذي أصبح في حالة يرثى لها.. كان أشبه بسمكة تقفز في صراع عنيف مع الموت وقد خرجت لتوها من البحر.. تنفس الصعداء عندما جاء الرجل أخيراً معتذراً على هذا التأخير الخارج عن إرادته.. وتوجه به إلى منزله.. كان الرجل كما يبدو متذمراً يسخط ويشتم كلما تعرضت سيارته لمطب أو حفرة، وهو يدلف أزقة ذلك الحي الضيق وغير السوي..

أخرج النجار زوجته التي أزداد الألم يعتصرها ويتوغل في أعماقها كنصل حاد.. قاد الرجل سيارته ببطء شديد، حتى لا يزيد من ألم المرأة ويؤذي سيارته من جهة أخرى. وعندما شارف الطريق العام انطلق بأقصى سرعته إلى المستشفى..

قال النجار وهو يحاول أن يخفف من الآم زوجته..

– تماسكي قليلاً يا عزيزتي، علينا أن نشكر الرجل، فلولاه لم أكن أدري ما سيكون عليه الحال.. لقد أذى سيارته بسببنا.. لا بأس أيتها الغالية ليس أمامنا سوى القليل فقط، وعندما نصل بإذن الله ويخرج المولود الجديد.. هل تعرفين يا عزيزتي، لقد قررت أن أصنع سريراً صغيراً له.. بل لقد بدأت به فعلاً.. اشتريت فراشاً مريحاً وأغطية وبعض المستلزمات وتركتها في الدكان.. لقد فكرت بذلك كثيراً.. قلت في نفسي لابد أن أجعله مرتاحاً.. كنت أريد أن يكون ذلك سراً حتى أفاجئك به.. ولكن لا بأس.. أرجو ألا تغضبي.. أعرف أنك ستغضبين.. ولكن، عندما تتماثلين للشفاء، وتخرجين من المستشفى؛ فسوف تجدين أيضاً سريرك الذي وعدتك به، اعرف أنك ستفرحين به كثيراً وستحمدين الله على ذلك.. تحاملي قليلاً يبدو أننا قد اقتربنا من المستشفى.. لا بأس سوف ترتاحين من هذا العناء.. أعرف كم عانينا كثيراً أثناء الوضع في المرات السابقة. ولكنك تنسين كل معاناتك، بل وتنتهي بفرحة كبيرة عندما تلمسين مولودك بيديك أليس كذلك؟! ألا تذكرين أنك أنت التي كنت تقولين لي ذلك؟! ها نحن قد وصلنا أخيراً نحمد الله على ذلك..

ودع النجار السائق الطيب القلب، الذي رفض بشهامة أن يأخذ منه أجرة إيصاله فأخذ يلهج له بالدعاء والثناء والشكر الحار..

كانت ردهات المستشفى مظلمة، إلا من ضوء شمعة ترتكز هنا وأخرى هناك، يتراقص على شعلتها التي يعبث بها ثمة هواء يتسلل عبر البوابة، كل الأشياء.. سأل إحدى الممرضات عن الطبيب المناوب، فطلبت منه الانتظار حتى تأتي به.. عندما جاء الطبيب قام بفحصها على ضوء شمعة، كان الألم قد زاد حدّة، فأمر الطبيب الممرضة بنقلها إلى عنبر الولادة، ريثما يصل طبيب التوليد المختص، متى عادت الكهرباء.

صرخ النجار متضرعاً:

– أرجوك أيها الطبيب.. ألا ترى كيف تتألم؟! ليس من المعقول أن تبقى تعاني الألم الذي يزداد كل دقيقة، ولا أدري متى يأذن القائمون على أمر الكهرباء بإعادتها، لأنهم لا يعرفون شيئاً ويبدو أنهم لا يريدون أن يعرفوا.. أتوسل إليك يا سيدي أن تتصل به فربما رق قلبه وجاء.. لا يهمني إن عادت الكهرباء أو ذهبت إلى الجحيم.. أنني لن أمانع حتى لو قبل بتوليدها على ضوء شمعة.. يكفي ما عانته من آلام، منذ ساعات طويلة.. فليس من المعقول أن تتعذب أكثر..

قال الطبيب بضيق:

– نحن نفهم ذلك.. ولكن ما يملي علينا الواجب نقوم به وفق الظروف الملائمة..

أجابه النجار وقد علا صوته قليلاً:

– المعذرة يا سيدي الطبيب.. أن الواجب حسب علمي لا يمكنه أن يبقيكم أمام إنسان يقتله الألم وأنتم تتفرجون دون أن تحركوا ساكناً..

قاطعه الطبيب بحدة:

– إسمع يا هذا نحن نعرف واجبنا جيداً..

قاطعه النجار بحدته هو الآخر:

– إذا عليكم أن تعملوا وفق ما تتطلبه حاجة الحالة، لا أن تديروا لها ظهوركم، إنها تعاني آلاماً شديدة منذ وقت طويل.. خففوا عنها هذا الألم واستدعوا الطبيب المختص ليقوم بواجبه.. ليس الأمر بسيطاً لينتظر الكهرباء حتى تعود ولا أحد يدري متى..

صرخ الطبيب في وجه النجار مقاطعاً بغضب:

– ومن تكون أنت بحق الله حتى تلقي علينا بالأوامر؟!

قال النجار وقد شعر أنه قد انفعل أكثر من اللازم:

– المعذرة يا سيدي.. لم يكن بيدي أن أكبح سورة انفعالي.. إنني ما قصدت أن القي عليكم الأوامر.. أبداً يا سيدي، أنني إنسان بسيط نجار على باب الله..

قاطعه الطبيب بصوت فيه تشفٍ وسخرية وتعال:

– نجار؟!.. جميل والله.. لم يبق إلا أن نأخذ التعليمات من النجارين أو سماكرة المجاري والإسكافيين..

لم يستطع النجار المسكين أن يفعل شيئاً أمام ذلك الطوفان الذي عبث بكرامته إلا السكوت وتنفيذ تعليمات الطبيب الذي وجهها لبعض الممرضين بإخراجه من الممر إلى قاعة الانتظار عند المدخل..

بقى النجار منتظراً لأكثر من ساعة ونصف وهو يذرع القاعة طولاً وعرضاً بقلق طافح وخوف كبير لا يدرك له قرار، حتى بدأت الخيوط الأولى للفجر بالبزوغ.. والكهرباء لا زالت مصرة على عدم العودة وكأنها هي الأخرى قد قررت أن تتمسك بزمام رغبتها نكاية بالنجار المسكين..

بعد لحظات عصيبة، أجفل قلبه فرحاً وهو يرى الممرضة مقبلة إليه، صرخ بصوت هدّه التعب، والفرحة تتراقص على وجهه الشاحب..

– خيراً يا سيدتي... لقد منّ الله عليها بالفرج.. أحمدك يا إلهي.. أرجو أن تكون بصحة جيدة، أعرف جيداً أنها عانت الآلام لكن لا بأس، ستكون بصحة جيدة، إنني اعرفها جيداً سوف تنسى متاعبها عندما تسمع صرخة وليدها.. هكذا كانت تقول لي دائماً.. أخبريني يا سيدتي، هل جاءت بولد أم بنت؟!

كان وجه الممرضة يغطيه شحوب، وربما كانت مسحة واسعة من النعاس قد كسا وجهها تماماً، تثاءبت بكسلٍ واضح، وجاء صوتها الكالح يحمل كلماتٍ لا حياة فيها..

– لا هذا ولا تلك.. جئت أشعرك بأن الطبيب سيسلمك التقرير الذي يوشك على الانتهاء منه عن حالتها وتصريحاً لك بدفنها..

1996/1/19

الفهـــرس

الإهداء 3
المقدمة 5
الندبة 9
الموت ما زال هنا 21
لمن تشرق الشمس 33
طائر البحر 41
هل لهذا الحب من نهاية 47
الهروب إلى الجحيم 53
خاتما الزواج 63
دخان وسيجارة تشتعل 73
ثمن النجاح 83
شرطي المرور 91
شظايا وأشلاء 97
المجنون 105
أميرة الابتسامات 109
الزائر الغريب 115
الجارة الجميلة 123
أحلام نجار بسيط 133

opeikan.com